

ممثل وحيد على مسرحٍ مهجور

الكتاب: **ممثل وحيد على مسرح مهجور**
المؤلف: خلف علي الخلف
نصوص مونودراما

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
info@jidar.net | www.jidar.net
الطبعة الأولى: 2026
الترقيم الدولي: **978-1-326-23901-5**
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

A lone actor on an abandoned stage
Author: Khalaf Ali Alkhalaf
Monodrama
Publisher: Jidar for Culture & Publishing
.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-23901-5

خلف علي الخلف

ممثل وحيد
على مسرحٍ مهجور

مونودراما

المحتوى

گلگامش بحذاءٍ رياضي

النص الحائز على الجائزة الدولية لنصوص المونودراما 2009

المكان:
قبر وحيد ومهمل؛ بشــاهد غير واضـح المعالم والطراز نبتت فوقه الأعشــاب وبجانبه أشجار غير محددة؛ وعدد من الصخور المتناثرة.
لا يشـــترط أن يقدم هذا النص في صـــالة عرض تقليدية ويمكن له أن يقدم في أي مساحة؛ كما يتخيلها صانعو العرض.

[صوت قوي يأتي من خلف الجمهور منشداً]

هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي
هو الذي خبر الأشياء و أفاد من عبرها
الحكيم العارف بكل شيء
أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة
وجاء بأنباء ماقبل الطوفان
هو الذي أوغل في الأسفار البعيدة حتى حل به الضنى والتعب

[يدخل گلگامش مخترقا مســـاحة الجمهور ناحية القبر. يرتدي بنطلون جينز كاحت وحذاء رياضي ويبدو رث الهيئة؛ ممسكاً بيده شمعة يضعها على شاهد القبر ويشعلها، يخرج من الحقيبة التي يحملها زجاجة عرق ويجلس بجانب الشاهد متحدثا مع القبر]

لقد تعبت يا أنكيدو.. تعبت من عد الســـنين.. لا أعرف أي ذكرى لوفاتك هذه.. في المرة الأولى عندما أتيت إلى قبرك رفعت كأسي صارخا في الفضاء:
نخب الذكرى الأولى لوفاة صديقي أنكيدو من نسي المكان الذي ولد فيه.. نخب صديقي الذي قال لي يوم انتهى قتالنا:

إنك الرجل الأوحد
أنت التي حملتك أمك

وقدّرلك الملوكية على البشر

...

في المرات التالية لذكرى وفاتك كنت أفعل هكذا.. لكني تعبت من العد.. بعد الكأس الألف لم أعد أذكر عدد الزجاجات والكؤوس التي شـربتها في ذكرى رحيلك. تركتني وحيدا أواجه الزمن الذي لا ينتهي، الزمن الذي يمتد إلى جهة في أقاصـي الأبد.. الزمن الذي يبدو لي الآن أن مهمته الأساسية إفساد الحياة.. الزمن الذي لم يفلح إنشتاين أن يقنعني أنه نسـبي. ربما كان كلامه صحيحا فيما لو تعاملنا مع الزمن كمسـألة خارجية أما أنا فأعيش في داخل الزمن.. أنا الزمن ذاته، ولستُ شاهداً عليه.

الذي يريد توصيفاً حيّاً للزمن عليه أن يقول إن گلگامش الذي لا زال حيّاً هو الزمن. فمنذ رحيلك يا أنكيدو صـارت رحلتي تعبيراً عن تحول الزمن وتجسـدّه كعلامة حيّة. أردت أن أعيش الزمن الأبدي، الذي لا يشـيخ، ولا تظهر التجاعيد على وجهه، الزمن الذي لا يمشـي على عكازه أو يقوده الآخرون. لقد تعلمت من رحلتي في الحياة أن إيمان الناس بما هو غير مدرك؛ هو إيمان بالمحسـوس؛ إيمان بما يمكن أن يُرى.. أو المجسـد بأي أثرٍ يدل عليه. في علاقتهم مع الزمن يؤمنون بآثاره؛ بما تركه شـاهداً على مروره الطويل... وهكذا أنا شاهد وشهيد هذا الزمن الذي سعيت لأبديته الموحلة...

كيف لمن عاش مثلي كل هذي السـنين أن يظل لديه إحسـاس بالزمن! في البداية، كنت أحسَـبُ الزمن طريقاً مسـتقيماً يبدأ مني ولا ينتهي.. فيما بعد قلت إنه دائري! لأني وصـلت إلى نفس النقطة التي مضـيت منها نحو الحياة مرات عديدة! إلا أن السـنين يا أنكيدو جعلته نقطة لا تتحرك.. العلامة الوحيدة التي كانت تشـعرني بأنه متكرر هي ذكرى وفاتك؛ وهذه أصبحت تتكرر بسرعة مخيفة! لم يعد هناك فارق زمني بين ذكرى لوفاتك والذكرى التالية لها! أضـحى زمني نقطة يا أنكيدو وأنا أعيش داخلها.. أنا أرمل الزمن، وفقيده، وشاهده، ومدون صرخاته..

عندما مت يا أنكيدو ناحت عليك شـيوخ أوروك ونحتُ عليك كالأرامل ووقفت فوق جثتك نادبا كالثكالى:

لتندبك المسالك جميعا

عسى أن لا يبطل النواح عليك ليل نهار

لتندبك كل حيو انات البرية

لتندبك الأنهر التي مشينا على ضفافها

ليبكِ عليك الفرات الطاهر الذي كنا نسقي منه

لتبكِ عليك الزوجة التي اخترتها

والأخوة والأخوات

...

[يفرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة]

كنت الفأس الذي بجنبي

والخنجر الذي في حزامي

وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي

لقد اختطفك الموت مني، وهمت على وجهي في البراري، وأسـبلت شـعري، وحرمت على جسدي الماء حزنا عليك؛ ومن أجل ألا ألقى مصيرك قطعت البحار طالبا الخلود..

ما عدت أذكر ذلك اليوم.. لقد اتسـخ؛ وأصـبح نقطة بعيدة.. بعيدة؛ بالكاد أراها ولا أتذكرها تماما، ومنذ اليوم الذي أكلت فيه عشبة الخلود أصبحتُ أصارع الأيام ومضى زمني هكذا إلى الآن..

أنت متّ واسـترحت منذ ثلاثة ألاف.. أربعة ألاف عام.. لم أعد أذكر، أنت ترقد في قبرك مستريحا وأنا أواجه أيامي في كل حين. أيامي التي لا أدري أين أمضي بها وأين تمضي بي..

هربت من مصيرك لأواجه مصيرا أسوأ منه!

هل تعلم يا أنكيدو ما معنى أن يواجه المرء الحياة أربعة ألاف عام..

أن يتحول من ملك ترتجف أســوار مدينته لوقع خطاه، إلى رجل بائس يســتدين ثمن زجاجة العرق التي يحيي بها ذكرى رحيلك. إنها أربعة آلاف عام يا أنكيدو حولتني إلى مســخ لم يعد يأبه له أحد، حتى أني لم أعد أذكر أني كنت ملكا، وإني كنت أنتقي الجميلات الفاتنات كي أضاجعهن.. أما الآن أما الآن فالأيام تضاجعني يا أنكيدو

[يرن جرس هاتف محمول يخرجه من الحقيبة؛ يضــعه على أذنه ويقف متحركا عبر بخطى ارتجالية تدل على استهتاره]

- ألو

- ...

- نعم أنا گلگامش

- ...

- نعم نعم لقد مثلت؛ لكنها أدوار ثانوية

- ...

- ولمَ لا؛ أنا مثلت في «الفيديو كليب» الأخير للمطربة نانسي

- ...

- نعم لقطة واحدة

- ...

- كنت أقف على جانب الطريق وهي تمر مسرعة بسيارتها وكنت ألوح لها

- ...

- نعم أعجب ذلك المخرج كثيرا، وأشاد بتلويحي

- ...

- حسـناً. أراك ونتحدث؛ لكن ليكن الأمر واضحاً فقد ارتفع أجري بعد تلويحي للسـيدة نانسي

- ...

- لا يا أخي ليست نانسي ريغان بل نانسي عجرم

- ...

- لا؛ بعد التاسعة في حانة... [يختار اسما لحانة مشهورة من البلد الذي يقدم فيها العرض]

[يغلق گلگامش الهاتف المحمول ثم يتفحصه]

بقي يومان وتفصلك «سيرياتيل» [يختار اسم شركة هاتف محمول في البلد التي يقدم بها العرض] لأني لم ادفع الفاتورة [يطلق ضحكة ماجنة هي خليط بين السكر والسخرية] من كان يصدق يا أنكيدو أن گلگامش ملك أوروك يُفصل هاتفه المحمول بسبب فاتورة.. [كأنه يستمع إلى القبر] معقولة أنكيدو! أحول لنظام الكارت؟ هذا لا يليق بملك؛ حتى لو كان سابقاً

[يعود ليجلس فوق القبر واضعا رجل على رجل وحذائه الرياضي يواجه الجمهور]

أعتقد أني أشبهُ حمامةً وقعت في شرك. لم يأتها الصياد، فظلت تصارع الشباك كل هذي السنين. تعبت من العد. تعبت ذاكرتي من الأيام. لم يعد للأرقام من معنى في ذهني. كيف لذاكرتي أن تستعيد الأيام منذ موتك إلى الآن!

كم من الأيام الجميلة مرت بي.. كم من الأيام المحزنة مرت بي، وأنا اعتصر روحي كل يوم لأصل لأخرها. لم يعد مفيدا يا أنكيدو أن أتذكرك..

لم يعد من ذكرى لي غير عذابي، العذاب الذي يتهجاني كل يوم؛ العذاب الذي ينشّف ريقي وأنا أرتعد أمام المرآة وأرى خطوط وجهي التي انمحت دلالاتها.. أتعرف ما معنى ألا يعبر وجهك عن كل تلك السنين التي مرت! أتعرف ما معنى أن يكون وجهك محايدا اتجاه الأيام!

أنا الذي عبرتني الأيام والعصور، وعاصرت السلالات من الآباء المؤسسين إلى الأحفاد. عاصرت دولاً؛ قيامها وانهياراتها، واندثارها...

أمم اندثرت يا أنكيدو وأنا مازلت أمشي فوق التراب.

الحياة تمر بي ولم يعد للزمن رائحة أو طعم،
أصبحت حبيس الزمن..
لم يخطر ببالي أنا الذي قطع البحار والغابات وقتل خمبابا وقابل أوتو نابشتيم وأتى بعشبة الخلود... [يقف دائرا حول القبر] أن يتحكم بي مهرب حقير في الطريق بين تركيا واليونان. نعم يا أنكيدو هربت.. هربت يا أخي، هربت.. الهروب أصبح لا يقدم عليه إلا الشجعان يا أنكيدو. هربت طالباً.. طالباً.. اللجوء الإنساني هاهاهاهاهاها غير أن الشرطة اليونانية أمسكت بي وأعادتني إلى بلادي عبر تركيا بحجة أن وضعي ليس فيه مايستحق أن يمنحوني بموجبه لجوءاً وأن حياتي في بلادي لا يتهددها أي خطر... هاهاهاهاهاها..
ما الذي يمكن أن يشكل خطراً على حياة شخصٍ يعيش الخلود... هاهاهاهاها لو عرفوا أني لا أموت ولن أموت تحت أي وسيلة تعذيب.. لكان هناك سبب شرعي ومنطقي لإعادتي إلى البلاد التي قدمت منها؛ بحجة أن لا شيء يشكل خطراً على حياتي بما فيها تفخيخي وتفجيري كما شاهدتم [يتجه للجمهور] جميعا في شريط رويترز الإخباري الذي بثته بعد سقوط صدام وكان يتضمن تفخيخ ثلاث أشخاص وتفجيرهم أحياء في حفرة... تتمنون ألا يودي بحياتكم شيء بما فيه تفجيركم هاهاهاهاهاهاها.. إن معاناتي تنبع من هنا يا سادتي، هذه هي معاناتي الإنسانية! أني لا أموت مهما حدث. لن تدركوا ما معنى ذلك حتى تعيشوا الخلود مثلي، الخلود الذي يحول الموت إلى أضحوكة، ويحول الحياة إلى شريط سينمائي تافه عليك مشاهدته وإعادته كلما انتهى.. لكي تفهموا معنى ذلك تعالوا لأقول لكم:
لو وضعتُ أيّا منكم في غرفة وبدون زمن وكانت حياته عبارة عن مشاهدة مستمرة لفيلم... [يُذكر اسم فيلم سخيف] ألا يعد ذلك أحد أقسى أنواع التعذيب...
في مرة أخرى غامرنا بسفينة مهلهلة من ليبيا إلى شواطئ إيطاليا وقبل وصولنا غرقت السفينة.. مات من مات وأنقذ من أنقذ... وحين سألني ضابط إيطالي عن اسمي قلت: كلكامش

قال: أووو أنت تحمل اسما تاريخيا عظيما. لا تستغربوا أن يكون شرطيا إيطاليا قارئا للتاريخ.. فالشرطة العرب وآبائهم وأجدادهم وأسيادهم وحدهم من لا يقرأ التاريخ...

قلت للمترجم العراقي الذي كان هناك: قل له إني أنا گلگامش نفسه ولست مسمى عليه.

ضحك المترجم ونظر إليّ بنظرة مليئة بالشفقة والاستهزاء والتعالي، ونقل كلامي للضابط الذي ضحك كثيرا. لم يكتف بهذا بل تحدث للشرطة طويلا وفهمت حينها أنه يشرح لهم من گلگامش الذي أقول إني هو! ضحكوا..

المترجم بدأ ينظر إليّ نظرة سخرية واشمئزاز.. قلت للمترجم متوسلا أن يصدقني: والله العظيم أني گلگامش. وأضفت لو كان جواز سفري معي لرأيت عمري المسجل...

رد المترجم باستخفاف: لا داعي لمثل هذه «الحركات» فنحن عرب مثلَ بعض؛ كان من الممكن لك اختلاق كذبة تصدق...

آه يا عمري [يتحرك ليجلس بجانب الشاهد] هذا العمر الذي يمتد ويمتد كحبل يلتف حول رقبتي لا هو يخنقني ولا أستطيع الفكاك منه.

حين بدأت الدول المعاصرة بتدوين السجلات للأفراد؛ تقدمت إلى موظف النفوس حاملاً كل السنين في رأسي الذي لم يشب حتى الآن.. وحين سألني عن عمري قلت له أربعة آلاف سنة وكسور؛ والكسور هي مئات السنين، ضحك حتى استلقى على قفاه، ومن بين ضحكاته قال لي:

من الذي تركك طليقا خارج مشفى المجانين. وحين لم أبد ردة فعل لجوابه وضحكاته قال لي:

لدي أعمال ولست فارغا لسماع ترهاتك.

قلت له مستعطفا أن يصدقني: سيدي أنا گلگامش.

قال لي متذمراً ومحاولاً صرفي: اذهب وآتي بشهود على الأربعة آلاف سنة..

وقعت في حيرة يا أنكيدو يومها، وتذكر أني أتيت إلى قبرك هنا باكيا.. قلت لك: اخرج من قبرك يا أنكيدو لتشهد أني گلگامش ولتشهد على هذا العمر الذي يريدون تدوينه في سجلات النفوس.

كل ما اســتطعت إثباته في ذلك الحين هو أن عمري مائتي ســنة.. فقد شــهد لي رجلان مســنان، اقترب عمرهما من المائة ســنة أنهم عندما وعوا هذه الدنيا كان گلگامش على هذه الهيئة وفي هذه الســن.. وان آباءهم وجدوه هكذا، وقالوا إن كل من في المنطقة يعرف أنه گلگامش؛ وأن عمري لا أحد يذكره وأنه روي عن آبائهم وعن أجدادهم أن هذا الرجل معمراً..

معمراً يا أنكيدو!

هل هذه الكلمة المناسبة لوصف حالتي

[يعود ليجلس على القبر]

أنكيدو.. أنت الســبب.. لو متُّ قبلك لما وصــلت إلى هذا الزمن. إن جثتك التي كانت ممددة أمامي دون حراك هي من أغراني بالبحث عن الخلود. أي فكرة خرقاء تلك التي ركبتني في ذلك الحين! ماذا تعني الحياة بعد أن يموت كل خلانك وأصــدقائك وتبقى وحيدا!! فما بالك بي أنا؛ الذي شهد جل البشرية وهي تولد وتموت ...

[يرن الهاتف المحمول يقف گلگامش متحركا بخمول واضح]

- الو

- ...

- نعم

- ...

- شكرا لك ربنا يحفظك

- ...

- من معي؟

- ...

- أهلا وســهلا؛ لكن والله ياخي أنا تركت التدريس بالجامعه من أكثر من ســنة والمادة أصبح يدرسها دكتور غيري

- ...

- الله يحفظك؛ لكن هذا ما حدث والله؛ وبدقة أكثر هم طردوني..

- ...

- لأني اشــتم گلگامش وتاريخه في كل محاضــرة.. وقد كتب أحدهم تقريرا فيّ بأني لعنت فكرة الخلود والأبد؛ ولمّح إلى أني كنت اقصد وقتها الزعيم الخالد

- ...

- شــكرا يا أخي كان بودي مســاعدتك... على كلٍّ المادة ســهلة ادرســها، وركز على بحث ملحمة گلگامش.. غالبا يأتي منها كم سؤال مهم

[يرمي هاتفه المحمول فوق حقيبته التي خلف الشاهد ويظل واقفا]

تصور أنكيدوو حتى المادة التي تتحدث عني وعنك لم يعد يسمح لي بتدريسها، ليس هذا فقط بل إن مسلسلا تاريخيا عن حياتي تقدمت لأمثل دوري؛ لكنهم أعطوني أحد أدوار الكومبارس التي يظهر فيها الممثل في مشــهدين فقط.. وأعطوا دور البطولة لســلوم حداد.. هاهاهاهاهاهاهاها

[يرن هاتفه المحمول مرة أخرى، يحمله ينظر في شاشته قبل أن يرد]

سلمى! [يضعه على الوضع الصامت... ويمشي كمن يتذكر..] ما الذي ذكرها بي بعد كل هذا الغياب؟ منذ أن ســافرتْ إلى دبي قبل ســنين اتصلت مرة واحدة لتقول لي أن هذا رقمي.. سـلمى تلك الفتاة التي حلمتْ يوماً أن تغير العالم وكنت أضحك.. كلما تلت على مسامعي أفكار الأب ماركس، وشقيقه بالرضاعة إنجلز.. كانت تغضب عندما أقول لها: منذ أن بدءوا بنشــر أفكارهم وأنا أقول يا لهؤلاء المعتوهين أنهم يريدون تغيير طبيعة النفس البشرية، أنهم يفترضون الخير في النفس البشرية.. أنا شاهد النفس البشرية عبر كل تحولاتها، أنا من يســتطيع القول إن النفس البشــرية مجبولة على كل ماهو شرير ومخادع و...

تظل سلمى أفضل من غيرها، أفضل من كثير من النساء اللواتي أحببتهن.. لم أعد اذكر عدد النســاء اللواتي مررن بحياتي، اللواتي تزوجتهن، اللواتي أحبّني، اللواتي مارســت

معهن الجنس.. دائما كان يحضرني مشهد البحيرة حينما أمارس الحب بشغف؛ حينما علمتك الغانية يا أنكيدو «فن الحب» ...
ما عادت النساء يا أنكيدو تشبه تلك الغانية التي علمتك الحب على شاطئ البحيرة. لم أعد أذكر كم من النساء بحت لهن بمشاعري... ذاكرتي أصبحت بعيدة ومتعبة. أنا الذي رفضت عشتار الملكة، التي كانت تمشي كقطرة مطر هاطلة من السماء. التي أحبتني بشغف يليق بمعرفتها بي. وكنت أعايرها بعشاقها السابقين.. آخر امرأة أحببتها حينما تأكدت أني گلگامش طلبت مني تقريراً عن كل امرأة أحببتها، وعن كل امرأة مارست معها الحب. أي هراء هذا يا أنكيدو. وحين أكدت لها أني نسيت. نسيت! قالت ثم صرخت بوجهي:
ستنساني إذاً مثل عشيقاتك السابقات العاهرات. وسيكون مصيري مثل أولئك النساء..
امرأة وحيدة تلك التي قالت لي تعال ياگلگامش اجعلني في كل مرة أصبح غيمة وأنت تقدس جسدي لا أريد أكثر من هذا أريدك أن تترك أثراً في روحي كلما جعلتك تصل إلى نشوتك. كانت تعرف أني أتصاعد مثل بخار حينما يلتصق جسدينا... لقد أحببتها، أحببت الوقت الذي كنت أذهب فيه إلى غرفتها التي تطل على بحر لا حدود له. كلما وقفت على نافذة غرفة نومها وشاهدت البحر اللامتناهي أتذكر عمري.. النساء يغبن عن ذاكرتي الآن.. اللواتي يحضرن من الكثيرات.. الكثيرات، هن فقط اللواتي كنا ينظرن إلى الحب من خلال أجسادهن من خلال الرغبة الجامحة التي تتصاعد فيهن ويصبح شبقهن بوصلة الحب. نعم الأنثى المحبة شبقه مثل غانيتك يا أنكيدو..
لن أنسى تلك المرأة اليونانية التي التقيتها عند حدائق بابل المعلقة، والتي قالت لي دون أن تعرفني أنت تشبه گلگامش؛ إن روح گلگامش قد استنسخت فيك... مضى وقت طويل حتى اعترفت لها أني گلگامش، لم يحتج الأمر كثيرا لأقنعها بذلك. كانت موقنة بهذا وبعربيتها التي تعلمتها في الإسكندرية قالت لي:

كنت واثقة أني سـأجد كلكامش، بعد أن قرأت سـيرته.. كان ذلك حلمي.. إن روحي روح آلهة ولا يستطيع إشباع رغباتها إلا إله. الإله الذي يمارس الحب كي يصعد بي ومعي إلى ملكوته العالي، هو ذا الحب يا كلكامش..

في البداية كنت ابتهج كلما تزوجت صبية جميلة وأعيد ترتيل حياتي على مسامعها.. غير أني مللت من هذا ولم يعد ذلك مجديا. في سـنة ما [صـمت وتفكير] فقدت ذكورتي لم يعد بي شـيئا يتحرك؛ صـار يضمر.. [ضاحكاً] لكني الآن بخير يا أنكيدو بعد اكتشـاف الفياغرا.. [يتحرك] أنجبت كثيرا في البدايات غير أنهم ماتوا؛ أبنائي كلهم ماتوا قبلي يا أنكيدو.. كنت في البداية أنوح عليهم كما نحت عليك في موتك الأول، لكني تعبت من البكاء، وجف دمعي، الزمن يجفف حتى الدمع يا أنكيدو.. الذين بقيوا أحياء لم أعد أعرف سلالاتهم، لم أعد أعرف حتى صلة القربى التي تربطني بهم... إلى أن كفت ذكورتي عن الإنجاب، وعن الحركة أحيانا. كان الوضـع مريحا في البداية.. أي بداية تلك التي سـأتذكرها الآن! كيف أنبش ذاكرتي كلما أردت أن أتذكر شـيئا مرَ في حياتي. لم أعد أذكر غيرك. أنت يا أنكيدو وهذا القبر...

لولاي لكان قبرك الآن نسـيا منسـيا، غير أني دأبت على ترميمه كل عام. حتى أني لم أدل البعثات الأثرية التي تنقب في تاريخنا أنا وأنت على قبرك كي لا ينبشـوه، فأنت صـديقي، ولا يمكن أن أضـحي بعظامك من أجل خبر صـغير تافه في جريدة ناطقة بإحدى اللغات [اكتشاف قبر أنكيدو!]

ولحسـن حظي إن البعثات التي عملت معها في مطلع القرن التاسع عشـر بحكم معرفتي بالعديد من اللغات، لم يصـدقوا أني كلكامش؛ تخيل أني كنت شـاهداً على العثور على الملحمة التي كتبها.. [يحاول التذكر] نسـيت اسـمه.. على أية حال؛ عندما قرأتها تذكرت أشـياء كثيرة عن حياتنا نسـيتها تحت تراكم السـنين. لم يصـدق أحد في البداية أني أستطيع قراءة ما هو مدون على تلك الألواح وترجمته لهم...

لكثرة سخرية البشـرية من «ادعائي» أنني كلكامش كففت عن هذا الادعاء، وأصـبحت أردد أمام من يسـتغرب الاسـم إن أبي كان مدرسـاً للتاريخ القديم في أحد الجامعات

وأسـماني بهذا الاسـم. عليّ أن اكذب ياصـديقي، بدلا من مداولات رددتها مئات المرات؛ يتهامس بعدها من أحدّثه بأن كان الله في عونه.. ويبدؤون في لعن الحياة وصعوباتها التي تجعل البني آدم يفقد عقله...

تذكرت شـيئا مهما يا أنكيدو.. وهو إبلاغك أن هذه آخر مرة أحيي فيها ذكرى وفاتك.. سـامحني يا صـديقي، مللت.. مللت منك، ومن قول القصـائد عند قبرك كل عام. لو جمعت القصائد التي ألقيتها عند قبرك كل عام لفاق مجموعها كل كتب التاريخ. وعليك أن تعلم أن هذه آخر قصيدة أدونها عنك

[يتقدم إلى حقيبته ويخرج منها ورقة يبدأ بالقراءة]

يا أنكيدو

الراحل في رائحة الوردة؛

الحقيقة تذبل، والأفعى تنام على وسادة ذيلها

صديقك گلگامش يتبول الحكايا؛

ويستند على ذيلها أيضاً.

جرذٌ نسيه الزمن؛ أو فأرة لم تعد تأبه لها الجرذان..

الفراغ انتصر عليه...

[يبعد الورقة من أمام عينيه ويبدو واضحا انه لا يقرأ في الورقة]

لقد انتصـرت عليه كل الأمم وشـهد الفتوحات. نعم ياصـديقي كنت المحارب الوحيد حين تهزم الجيوش وكنت الناجي الوحيد حين تترامى الجثث وكنت الوحيد الذي يخوض بدماء غيره.. أي شـهادة يمكن أن أدونها على تلك العصـور! كيف لي أن أسـتريح وصـراخ قتلاي ما زال مدويا في أذني! صـحيح أنه تناهى في البعد غير أني ما أزال أسـمع الصرخات، كمن يصيخ سـمعاً لصوت السـكون.. مؤرّق صوت السكون يا أنكيدو.. ولا تحسـب أني أمزح أو اكتب شعرا حديثا؛ استمع للصمت، أنصت له، وسترى وستسمع

كم هو مدوٍّ وســـيمنعك من النوم. لقد منعني من النوم ليال طويلة فما بالك إذا كان مخلوطا بالصمت الذي يعقب سماعي لصراخ ضحاياي..

[يعود إلى الورقة ليقرأ]

الفراغ انتصر عليه؛

والزمن ماءٌ؛ تشرب منه الكلاب وتهز أذيالها.

أرامله حبلت من هوائه، وخلّانه تراب

...

أي وصف أخرق هذا! خلاّني أصبحوا نفطاً على ما أظن. يبدو أن النفط هذا قد تشكل من أجداث خلّاني. إذاً كم من الأحياء ماتوا ليتشكل هذا الاحتياطي الهائل من النفط

[يعود ليقرأ من الورقة]

الفراغ يبصره.

الشمس تحمّر وجنتيها المائلتين..

أنكيدو يا ورقة الدراق الأخيرة؛

صديقك گلگامش؛ يتبول الزمن أو يتبوله..

[يرن الهاتف المحمول]

- نعم

- ...

- أهلا، أهلا.. أين أنت يا رجل لم تظهر منذ وقت

- ...

- لا والله لم اقرأها بعد، مع أنها معي منذ الأمس

- ...

- سأفتحها الآن انتظر قليلا [يذهب إلى الحقبة يخرج أحد الجرائد الإعلانية، يفتش عن إعلان ما وهو مقرفصا على قدميه]

- ...

- لقد وجدت الإعلان شكرا لإبلاغي

- ...

يقرأ: طلب مترجمين مسـماريين لشـركة تجارية... حسـن المظهر... أن لا يتجاوز عمره ثلاثين عاماً...

[يترك الجريدة فوق الحقيبة وينهض]

حتى هذه الوظائف لم تعد تقبلني بسـبب عمري. المرة الأخيرة التي تقدمت فيها لوظيفة كان أحد شـروطها أن يجيد المتقدم عدة لغات؛ لكن كان هناك شـرط آخر هو ألا يتجاوز العمر خمسـة وثلاثين عاما، دهش الموظف وهو يقرأ تاريخ ميلادي ونادى على كل الموظفين في المكتب... قال لي: لم لا تصحح هذا الخطأ في بطاقتك الشخصية...

[بغضب متصاعد]

أي خطأ يا سـيدي أي خطأ.. انه ليس خطأ كتابي.. انه خطأ حياة! هل هذه هي العبارة المناسبة لوصف هذا؟ هل هو خطأ أساسا؟

أنت الخطأ؛ أنت الخطأ، [ينظر للقبر بغضـب] أنت من قادني إلى هنا أيها السـافل أنت لا تسـتحق الاحترام، حتى لو كنت ميتا.. لم يعد للأموات عندي قدسـية، بل أني أنظر إليهم بحسد كبير لا أحد يعرفه غيري، حتى أني أصبحت اسمي نفسي «حاسد الأموات». الرجل الذي يتسرب من خلاله الزمن. صنيعة الزمن ومضيّع الأوقات

[يلطم وجهه بندم وحسـرة شـديدة ووجهه للجمهور ويبدأ بحركة غير محددة ثم يتوجه للجمهور]

لم أسمع لصاحبة الحانة؛ التي اختصرت عليّ كل هذا العذاب منذ أكثر من أربعة ألاف عام، قالت لي:

عش يومك يا گلگامش. هذا هو الخلود.

غير أني لم أعر كلامها أي اهتمام؛ قلت في نفسـي إنها لم تر أنكيدو وهو ممددا جثة هامدة لا نفس فيه؛ وقد أصبحت روحه خارج جسده الذي كف عن الحياة.. الحياة هي

الزمن. [يضرب بيده على جبينه] ما أبأسني حين آمنت بهذا؛ كل ما في الوجود يدور؛ إلا أنا. أنا لا أدور. من هذا البائس الذي قال إذا مشينا نعود إلى المكان الذي انطلقنا منه؟ لم أعد إلى مكاني أبدا، لم أعد إلى مكاني.. لو عدت إليه لما غادرته. حياتي ليست دائرية يا أنكيدو حياتي ليست صعودا ولا هبوطا.. حياتي مثل مياه في قربة مثقوبة، لا ماؤها ينتهي ولا هي تكف عن السيلان.

[يتجه گلگامش متحركا إلى زاوية مكان العرض المقابلة للقبر بعد أن يلتقط زجاجة العرق من جانب القبر]

من اكتشف هذا العرق خلد أكثر مني يا أنكيدو

هذا الذي يقشر لنا اللحظات

هذا الذي يعمي عيون أيامنا

هذا الذي به تتسع الروح إلى أقصاها

هذا الذي

...

[صوت حركة غير معروفة المصدر.. يلتفت باستخفاف ويهز رأسه]

ما هذا؟ لو كان أحد غيري لخاف من هذا الصوت في هذه الوحدة الموحشة. حتى معنى الخوف من المفاجآت سلب مني.. أتعرف يا أنكيدو ما معنى أن لا يدهمك شعور الخوف من شيء ما؟

مما تخاف إذا كان الموت مبعث الخوف الأزلي قد سلب منك؟ مما تخاف إذا فقدت كل خلانك وأحبابك وأهلك؟

كل الذين أحبهم

لم تعد أصابعهم تقشر البرتقال

[يستدير على نفسه متوجها إلى الجمهور]

لنواجه هراء الأبد بالمجازات. لكن لمَ قلتُ البرتقال وليس البندورة..

[يرن الهاتف المحمول]

- أهلا

- ...

- لا يا أخي هذا الهراء أنا لا اذهب إليه

- ...

- مسألة مفروغ منها...

- ...

- لا؛ لا أريد الذهاب حتى أعرف. الفرق بيني وبينك أنك تريد الحضــور وتخرج بعدها تشتم وتلعن.. أخي أنا أشتم دون أن أحضر

- ...

- لا، ليس هذا هو الأمر لكن ماذا تعني محاضــرة عن الحق العربي في القدس في ضــوء شرعية الأمم المتحدة...

- ...

- لا يا أخي؛ لكن الموضوع أني لا أريد شرعية الأمم المتحدة لأعرف هذا الحق..

- ...

- فليذهبوا به إلى غيرنا، نحن موافقين ونبصم بالعشرة على هذا الكلام...

- ...

- اشتموا شارون أنت والشباب.. وقولوا إنه مجرم حرب.. ومن هذا الكلام الفارغ...

[ينقطع الإرسال]

اللعنة على هذه الشــبكة، لقد تحول الناس إلى عمال يومية، في آخر يومهم يودعون حصيلة عملهم لدى أصحاب شركات المحمول.. وياريت الواحد يستطيع إكمال مكالمة دون أن ينقطع الخط. قصداً يفعلون هذا.. لم أستطع سماع تنظيرات صاحبنا [وينظر إلى شاشة المحمول] المهتم بإنارة درب الجماهير.. [ساخرا] والله المفروض أمدد الكهرباء إلى قبرك يا أنكيدو لتنعم بشيء لم يكن يخطر لأحد في عصري وعصرك، ولا أحد كان

من الممكن أن يتخيله مهما أوتي من قوة الخيال.. هل ستحس بالكهرباء وأنت في ظلمات العالم السفلي؟ يخطر لي أن أتعهد ظلمات العالم السفلي بالإنارة. إنه أضخم مشروع في القرن المعاصر. أي قرن هذا؟

المعاصر! إنها تسمية تليق بهذا القرن

أي وصف أخر لا يعنيني

أنا من فقدت الأرقام معناها لديه

تخيل يا أنكيدو لو ندخل لقبرك كمبيوتر محمول وأتحدث معك عبر «الماسنجر»... هاهاهاهاهاهاها. إنها أعظم معجزات بيل غيتس. لا توجد معجزة تعادل معجزة «الماسنجر». نعم صدقوني [يواجه الجمهور] أنا عاصرت كل المعجزات.. لم أر أعظم من «الماسنجر» هاهاهاهاهاهاهاها تخيلوا گلگامش العظيم يغازل فتاة في كيرلا الهندية! عبر «الماسنجر» هاهاهاها إنّها تحنّ إلى أرض أجدادها.. أنا جدّ أجدادها.. نسيت ماذا كان اسمها.. تلك الفتاة المسيحية التي كانت تقول بفرح ومفاخرة أن أصلها سوري وتعيش في كيرلا...

الذاكرة يا أنكيدو خارج مفهوم الزمن. لو كانت الذاكرة خاضعة لمفهوم الزمن لما تذكرتك تحت ركام الذكريات المنهال عليك، لكنك ما زلت أوضح ذكرى لدي رغم مرور كل هذه القرون. لم أعد أذكر الأمس يا أنكيدو، حتى أني لا أذكر ماذا أكلت. غير أني أتذكرك بوضوح أنت نقطة الذاكرة الأشد وضوحاً، ربما لأنها هي التي شكلت كل حياتي التي تلتها... أتذكر كيف كنا نأكل. كيف قطعنا غابات الأرز سويّا.. كأن هذا يحدث اليوم.. إنها ذاكرتي المعبأة بك أيها اللعين. أذكر حين قرأت لكونديرا قوله إن أهمية الأصدقاء هي كونهم ذاكرة. قلت حينها: لقطها اللعين! فذاكرتي تخرجك من بين كل الركام الذي ابتليت به؛ حتى أني أفكر أحيانا أيّنا الذي نال الخلود أنا أم أنت؟

إلى الآن لم يعرف أيٌّ من أصحابي أين أختفي في هذا اليوم! إنه يومي الذي لا أريد لأحد أن يشاركني به. مرات كثيرة كنت أُسمي مجيئي إلى قبرك: يوم الاحتفال بذكرى أنكيدو...

إلى أن انتبهت ذات يوم منذ... ألف سنة أو أكثر على ما أذكر؛ إنني في هذا اليوم لا أرتبط بك، بل إني آتي لاحتفل بيوم ولادتي اللعين. نعم يا ســيدي فقد كانت لحظة موتك هي باعثي للبحث عن هذا الذي أنا فيه؛ سـمه ما شـئت غير الخلود. سـمه ما شـئت.. لنقل مثلاً: إنه الاســتمرار في الحياة. لنقل أنه: أن تظل تحمل جثتك مدى الأيام. وقد يخطر ببال أحدنا أن يسـتبدل الأيام بالزمن.. يمكن أن أسـميه أي شـيء إلا أن أسـمح لنفسـي بتسميته خلود

[يتجه إلى هاتفه المحمول يلتقطه ويهاتف أحدا]

- مرحبا أبا الفوز أين أنت؟

- ...

- لا والله اليوم من الصعب أن آتي

- ...

- أيّ نساء يا رجل! لم يعد لدي شيئاً يثير اهتمام النساء..

- ...

- لا تحرجني؛ عندي جلسة خاصة..

- ...

- أخي.. مهما كان الموضوع مغرياً؛ لن أستطيع المجيء انه يوم الغياب في حياتي..

- لا ليس شعراً صدقني إنه وصف لحقيقة قائـ..

-...

- أخي لاتحاول.. وقد أنسـيتني الموضـوع الذي كلمتك من أجله.. إذا كان بإمكانك أن تمر إلي غداً إن لم يكن لديك عمل.. هناك فيروس دخل كمبيوتري وعطله ومن الضــروري أن أدخل إلى الانترنت؛ انتظر ايميلا مهما من جهة ما...

-...

- هاهاهاهاهاهاهاها.. يا أخي هذه الفيروســـات لا تعرف كلكامش، ولا حتى صـــدام، يقال إن فيروس اســـمه [I love you] دخل كمبيوتر صـــدام هاهاهاهاهاها وأهلك كل ملفاتـه ومن ضـــمنهـا ملف الغزو، وملف الفتح، وملف الفرق بين الفتح والغزو هاهاهاهاهاها [يضحك بصوت عالي وتبدو ضحكة سكران]

-...

- لا والله؛ مجرد ربع لتر عرق

-...

- من الصـعب تأجيل الأمر يا أبا الفوز؛ لا أعتقد أن الأمر سـيسـتغرق وقتاً طويلاً؛ وفي أي وقت ترى أنه مناسب لك..

- ...

- لا طبعاً؛ نسخة مقرصنة.. وعلى ما أظن النظام سليما.. الفيروس بسيط على ما يبدو، ولم يستطع تدمير النظام؛ هل من السهولة تدمير نظام في هذا العصر..

-...

- أخي لا تذكر القاعدة، حتى لو كان الأمر يخص قاعدة البيانات هاهاهاهاها قد تكون الـــ سي أي إيه تراقب هواتفنا ويغلقوا حساباتنا الخارجية وتذهب ثرواتنا المكدسـة في الخارج هاهاهاهاهاهاهاها

- ...

- نعم أنا ثري؛ ولم أنهب أحداً ولا بلاداً؛ فقط احســـب لو أني وفرت كل عام ما يعادل ألف دولار هاهاهاهاهاهاهاهاها

-...

- لا هذه قاعدة حساب هاهاهاهاهاهاهاهاهاها ولا علاقة لها بالقاعدة

-...

- حسناً؛ أراك ونتحدث..

[يضع الموبايل على خاصرته ويبدأ المشي باتجاه القبر]

يريد أن يحولني إلى رجل مشــبوه.. يريد أن يربط اســمي بالقاعدة.. أجهزة التنصــت لا تفرق بين قاعدة البيانات وقاعدة بن لادن! حينها سأتحول إلى مطارد من الـ سي أي أيه؛ وكل الأنظمة التي تعمل معها.. [يصمت كمن يتذكر ويقوم بحركة تشير على أنه يحاول أن يتذكر بعض الأشــياء] حتى هذه اللحظة لا أعرف من الذي دل القاعدة إليَّ.. وكيف اقتنعوا بفكرة «خلودي» رغم أنها لا تتفق مع قاعدتهم هاهاهاهاهاهاهاها لكنهم أناس عمليون فقد أرادوا الاســتفادة من قدرتي على هزيمة الموت لحصــد المزيد من الأموات من أجل أن ينتصروا على... ينتصروا على من؟

المهم أن ننتصــر.. ننتصــر على من ســيموتون، حتى لو كانوا لا علاقة لهم بهزائمنا.. [بســخرية] قليلة.. انتصــارنا على أكثر من ثلاثة آلاف قتيل في «غزوة نيويورك».. لقد أرعبنا العالم [بتهكم واستنكار].. وها نحن.. أصبحت سحنتنا تثير الرعب أينما حللنا؛ في أيّ مطار نحل به نثير الريبة؛ ونثير المفتشين والــ... العالم يحاربنا! العالم ينام ويصحوا وهو يحيك المؤامرات لحرفنا عن عقيدتنا [يلتفت للجمهور] عقيدتنا.. هذه غير العقيدة التي تســتخدم لنتف الشــعر في المناطق الحســاســة هكذا تســمى في الشــام هاهاهاهاهاها بينما في الخليج يســمونها حلاوة... أي والله حلاوة.. العالم يحارب حلاوتنا.. هاهاهاهاهاهاهاهاها هكذا ترى القاعدة [يشــير إلى أعلى] وأنصــارها [للجمهور]؛ لذلك ذهب أنصــارها لعقر دار العالم لكي يقتلوا مايســتطيعون من أولئك الذين يحاربون حلاوتنا هاهاهاهاهاهاها...

كيف يقدم هؤلاء على قتل أنفسهم؟ هل ضاقوا ذرعاً بالحياة مثلي؟ هل يتمنون الموت مثلي؟ لكنهم لم يعيشــوا من الحياة ما يكفي كي يقرروا إنهاءها بفكرة بائســة هي النصــر على... أشــباح؛ لم يعيشــوا الخلود ليعرفوا ما معنى الحياة القصــيرة الحياة المليئة بالشــغف والــــ... حياة؛ كيف لم يفكروا بصــراخ ضحاياهم وهم يحولونهم إلى أشــلاء متناثرة!!

تخيل يا أنكيدو لو انضممت لهم كم عملية سأنفذ؟ أنا هازم الموت وحاسده.. تخيل لو تحولت إلى جالب للموت للآخرين؛ لأصبح اسمي في سجل الــــ... لا لا لا كل ما أريده هو

إنهاء حياتي. إنهاء حياتي أنا ولا أريد أن انهي حياة شخص أخر. يكفي ما قتلت. يكفي ما رأيت من الدماء والجثث. يكفي ما عاصرت من الحروب. يكفي؛ فحياة الناس أقصر من أن ننهيها لهم فجأة دون أن يكملوا أحلامهم.. من المحزن أن لا يكملوا بعض الاعمال التي خططوا لها.. حياتهم قصيرة لا تحتمل إنهائها بتفجيرهم.. لا أحد في هذا العصر يحلم بالخلود بالطبع...

أنا الذي كنت ثلثا إله تحولت إلى بشر بائس.. كل هذا من تحت رأسك أيها اللعين

[يتقدم إلى القبر ويبدأ برفسه]

ما كان يجب أن تموت قبلي

ما كان يجب أن تتركني لأعتنق الوهم

متمثلا بزمن لا ينتهي يسمونه الخلود

لم يعد لي في هذه الحياة

إلا أن اردد

قول عجوز عافها الزمن

أريد أن أموت أريد أن أموت...

[يعانق حجارة القبر ويبدأ بالنحيب..يتناهي صوت النحيب إلى الصمت لـ لحظة طفيفة.. يرن الهاتف المحمول؛ كلكامش لا يرد ولا يتحرك...]

حلب 2 تموز 2004

حقيقتان وممثلة واحدة

المكان: خلفية سوداء يتناثر عليها تلوينات حمراء على شاكلة مقهى. كرسيان وطاولة واحدة، وهناك فنجان قهوة، علبة سجائر على الطاولة، ومنفضتين. أوراق متناثرة و أيباد [أو لابتوب صغير]. امرأة شابة تعود من عمق المسرح تجر الكرسي الذي يبدو أنها كانت تجلس عليه .

تبدأ بقراءة بعض الأوراق بصمت.. ترمي الأوراق على الطاولة وتحدث نفسها:

من الصعب إنجاز عرض مقنع من كل هذه الأفكار والشهادات المتناثرة، الأمر ليس سهلاً. الكتابة لا يمكن أن تصل إلى تجسيد حدث، الكتابة تنقل أشياء من الحدث، تصفه، تنقل مضمونه، في كل حدث هناك أشياء لا يمكن نقلها. كيف يمكن نقل أحاسيس ومشاعر وأفكار أشخاص مشاركين في ذلك الحدث لحظة وقوعه، هذا يقتضي أن يكون الكاتب كلهم في ذات اللحظة ...

صعبة يا أخي. سلمى أصرت على صديقها الكاتب ألا يكون النص مباشراً أن يكون خافتاً أن يغوص في المشاعر والعلاقات الإنسانية.. قد يكون الحق معها.. تريد عرضاً يقاوم الزمن، ويمكن أن يعرض في كوستاريكا ويتفاعل معه الناس بعد سنوات طويلة من لحظة كتابته.. لكن هذا تعقيد للأمر. نحن نريد عرضاً مسرحياً بسيطاً وعادياً؛ وبالتأكيد لا يمكن لشكسبير أن يكتبه لنا ولن يخرجه «بيتر بروك».. بروك آآآه بروك [كمن يتذكر].. وجدتها: «المتناقضات». الوصول إلى الحقيقة عن طريق المتناقضات. هذا مناسب لفكرة العرض الذي نريده. ويناسب الحالة التي نريد التعبير عنها، وبالتأكيد لسنا أفهم من «بروك» في المسرح. ولكن ما هي الحقيقة التي نريد أن نصل إليها! هل هناك حقيقة أصلاً يجمع عليها الناس [تشير إلى الجمهور وتسألهم:] هل الحقيقة واحدة موحدة لكم جميعاً.. رأينا الحقيقة الواحدة الموحدة أين أوصلت الشعوب. خذوا

الكوريين الشماليين الذين يلبسون لباسا موحدا ويبكون بكاءً موحدا على فقد الزعيم.. وأسماء زعمائهم موحدة.. كيم سونغ الجد، وكيم جونغ الاب وكيم جونغ الابن. بقي كيم جونغ الروح القدس ليكتمل الثالوث المقدس. هذا الشعب الموحد على حقيقة واحدة وقائد أوحد منذ أكثر من نصف قرن.. ميت من الجوع. هذه هي الحقيقة. الحقيقة الموحدة سخف.. ما فائدة الحقيقة أصلاً.. بماذا تنفعنا؟ في هذا العرض تحديدا ماذا يمكن أن تنفعنا الحقيقة؟ وهل هي غائبة أصلاً كي نكشفها ونقنع الناس بها؟

لنتدرب على قول الحقيقة.. لنستحضر أمثلة على قول الحقيقة. هل تذكرون الطفل الذي قال: الملك عارٍ... ما قاله كان حقيقة يراها الجميع. لكن فكروا قليلا ما نفع «حقيقته» التي قالها؟ أنا أرى أنه مجرد ولد أرعن. الناس كلها كانت متواطئة مع الملك ويرون لباسه جميلا، والملك نفسه مبسوط بهذا، ما فائدة أن يواجه طفل حشداً كاملاً بالحقيقة، ما فائدة أن نقول إن الملك عارٍ! خرّب الاحتفال كله، وجنى على الخياط.. وكشف كذب الجمهور الذين كانوا جميعاً يرون هذه الحقيقة لكنهم تجاهلوها لأنها غير مفيدة، وهذا الولد لأنه.. ولد خربط القصة كلها.. ماذا استفاد؟ ماذا استفاد الحضور؟ هل عدل هذا الولد مسار التاريخ؟ كلا [باستعراضية شديدة] كلا.. لم يغير شيء سوى انه تسبب في عقاب الخياط.. ولا تذكر الأسطورة ماذا حل بوالديه. الحقائق العارية مجرد أساطير. المسألة معقدة برأيي..

لو كانت سلمى هنا لقالت: لا لا.. لا تصدقوها. هذه وجهة نظرها.. هذا تبرير لتسويق الأكاذيب، إذا كانت حقيقة ساطعة كملك عارٍ يتم الالتفاف عليها بهذا التبرير السخيف ماذا سنقول للطغاة المواربين.. الحقيقة هنا أن الطاغية كان عاريا.. حقيقة مثل التي قالها هذا الطفل ساطعة ولا يمكن إخفاءها بغربال مهما جرّت من ويلات عليه وعلى

أهله وعلى الخياط الذي خدع الملك.. هذا ما يسمونها الحقيقة العارية، وأصلا لم تكن تحتاج لكشف. الحقيقة تقول إن هناك طغاة مستبدون وحاشية كاذبة يبيعون لهم العري على أنه لباس سحري لم يصنع مثله في التاريخ، وهناك من يواجههم بهذه الحقيقة. لو لم يكن للحقيقة قيمة بذاتها لما بقي من يتمسك بها على مدار التاريخ.. الحقيقة حرية.. الحقيقة تحررنا.. كم هي ثمينة وغالية تلك الحرية؛ وإلا كيف يمكن أن يكون مهرها الروح، ملايين الأرواح ذهبت من أجل الحرية.. الحرية..

بدأنا ننزلق إلى المباشرة التي حذرت منها سلمى. لكن هذه حقيقة. لو كنت أنا الحرية التي يدفع الناس أرواحهم من أجلها. هذا يرضي غروري كأنثى، أن يكون مهري غال، أغلى من مهر عبلة التي طلب والدها مئة من النوق العصافير من عاشقها عنترة. أنا.. أريد أن أكون الحرية. [خرجتُ عن النص.. لكن الأمنيات دائما خروج عن النص].

حسناً. «لابأس من الإقناع» كما قالت سلمى ونحن نضع مخطط العرض مع الكاتب. علينا أن نستخدم «المتناقضات» في سبيل إظهار الحقيقة. أنا شخصياً أعرف الحقيقة، وهي هنا في جيبي الصغير، صحيح أني لا أهتم لها، لكن لابأس من إقناع المتعامين عنها. في سبيل إقناعكم [تتوجه للجمهور] لابد أن أسرد لكم قصتي الحقيقية.. وستسرد لكم سلمى إذا جاءت قصتها الحقيقية.

أنا أعرف سلمى تشرد دائما خارج الوقت، منذ أن عرفتها وهي تنظر لساعتها دائماً، رغم أنها لم تلتزم بموعد إلا بالصدفة. هذه حقيقة سلمى وهي حقيقة هامشية لكنها أيضا في جيبي هنا.. إذا لم تأت سلمى سأسرد لكم «حقيقتها» وهي بالتأكيد مختلفة عن حقيقتي [تشير إلى جيبها]، رغم أنها لم تقنعني لكن الواجب المهني.. لا، لا.. واجب الإقناع يقتضي أن أعرض لكم حقيقتين وتصوتون بالنهاية لاختيار الحقيقة التي ترون أنها هي الحقيقة،

وأنا واثقة أنكم ستصوتون لحقيقتي أنا..

لن ألتزم بالنص! فحقيقتي التي سأحدثكم عنها أنا التي رويتها للكاتب، صاغها عبر لغته، واختصر أشياء كثيرة عجز عن نقلها لكم، واستبعد أشياء لا تتوافق مع ما يراه «الحقيقة». لكن هنا أنا سيدة النص ولا يمكن أن يقطع المخرج والكاتب العرض لأني تدخلت في الحقيقة التي رسموها لي. وربما لا يكونا حاضرين أصلاً..

سأتلوا لكم ما دونه الكاتب وعليكم أن تلاحظوا خروجي عن النص بأنفسكم، فليس من المعقول أن أنبهكم في كل مرة أخرج فيها عن النص. وأقول لكم: أنا أخرج عن النص أيها السادة المشاهدون.

ولدتُ في الشهر الأول من عام 1971 في اليوم الأول منه. هكذا تم تسجيلي في السجل المدني، لكن أبي كشف لي لاحقاً أنه ليس تاريخ ميلاي الحقيقي، أمي فكرت بزواجي منذ أن ولدت وقالت لأبي: «يعني كم يوم تقديم لا تضر»؛ فأنا ولدت في آخر عام 70 في 16 تشرين الثاني، أبي كان لديه مبرر آخر، فهو لم يكن يريد تسجيلي في يومٍ مشؤومٍ كهذا. وهكذا بكذبة صغيرة كسبت سنة.. وتخلصت من سخرية أصدقائي طوال حياتي. ما فائدة الحقيقة هنا؟ أنا أجد أن كذبة مثل هذه مفيدة لشخص واحد على الأقل الذي هو أنا.

حين وعيت على الدنيا [كما يقولون] وجدتُ أبي شاعراً، كان حين ينتهي من كتابة قصيدة ينادي أمي كي يقرأ لها آخر ما كتب. وكانت تؤمن أن أبي أعظم شاعر في الوجود.. رغم أنها لم تقرأ من الشعر إلا ما يقرأه لها أبي لم أكن أفهم «حقيقة» ما يقوله أبي، ظل في مخيلتي نبرة صوته وحركاته الاستعراضية وهو يقرأ لأمي التي كانت في حالات الرضى

تسمع له بحبور شديد وملامح الإعجاب تكون واضحة على وجهها؛ بينما حينما تكون غاضبة منه تظهر ملامح الضيق والتبرم.

كنت أكتب في الاستمارات المدرسية في خانة مهنة الأب: شاعر. كنت أكتبها بفخر شديد، وأنظر إلى زميلاتي اللواتي أباؤهن سائق تكسي، أو شرطي، أو حارس في منشأة حكومية أو عسكري أو ضابط باستخفاف شديد [الحقيقة كنت انظر بازدراء ولكن الكاتب أصر على أن نتجنب احتقار المهن ونوصل رسالة محايدة]. كانت دهشة المعلمات وزميلاتي عند جوابي على سؤالهن «ماذا يعمل أبوك؟» تزيد إحساسي بالتفوق. ومرة قالت لي المعلمة: «ما نوع الشعر الذي يكتبه أبوك؟». لم أفهم حينها ما تقصده المعلمة كنت في الصف الرابع الابتدائي، وحين أدركتُ ذلك قالت لي: «هل يكتب الغزل أم المديح أم الهجاء...». قلت لأبي بفرح شديد السؤال حينما عدت إلى البيت... أذكر أن خيبتي كانت شديدة بجوابه. قال أبي ضاحكاً: «يا بنتي لم تعد هذه التقسيمات في الشعر.. أنا أكتب شعراً حديثاً». لم أفهم هذا الـ «حقيقة» في حينها، واعتبرت إجابة أبي مجرد محاولة لصرفي عنه لأنه كان يقرأ. وحين سألته عن ماذا يتحدث شعرك يا أبي؟ قال إنه يتحدث عن الإنسانية. لم أفهم ماذا تعني الإنسانية في حينها، لكن مخيلتي الطفولية تخيلت شيئا جميلا.. تخيلت غيمة تحملني إلى خالتي في استراليا.. تخيلتُ.. [لا داعي لأن أعيد تخيلات طفولية وأنا بالغة ستثير سخريتكم]. قال أبي حين عرف أني أكتب مهنته شاعر، إن الشعر ليس مهنة! الشعر مجرد هواية. أما مهنتي فهي محلل بيانات في مديرية الإحصاء. [كان صعبا علي أن أتخيل ما تعنيه مهنة أبي]. تلك الحقيقة أثارت استيائي. لم أحب مهنة أبي وبقيت أكتب في حقل المهنة في أي استمارة أو أي سؤال عن عمل الأب: شاعر. وأصبحت أضيف لها أحياناً: يتحدث عن الانسانية.

أبي أعتقل في عام 1982. كنت صغيرة، ولم أفهم حينها ماذا يعني «اعتقال»! ومع مرور الإيام عرفتُ أنهُ غياب ضحكة أبي أثناء مشاكساتي الطفولية. الاعتقال غياب حضنه حينما كان يعجز عن الاجابة على أسئلتي. لم يكن أبي يمتلك الحقيقة مثلي. كنت أحيّره في أسئلتي التي لم يكن لديه إجابة لها سوى حضني وتقبيل رأسي وأنا في حضنه. من مثل: لماذا لا تصبح رئيسا يا أبي؟ !

ليس مهماً هذا الآن، رغم أنه جزء من حقيقتي. أريد أن أقول لكم لماذا أنا هنا؟ بصراحة أنا متحمسة لهذا العرض الذي نريده حقيقياً ومقنعا للمتفرجين. لذلك عليّ أن أخبركم بحقيقتي.. رغم أني أفكر بتأسيس جمعية اسمها «أعداء الحقيقة» ... آه نسيت أن هناك حقيقة أخرى تقدمها سلمى حينما تأت ولكني متأكدة أن حقيقتي ستعجبكم. [يمكن أن تحاول الممثلة بحركة من جسدها أقناع الجمهور بحقيقتها] حقيقتي رشيقة. صحية. إنسانية. لا تسبب الكوابيس. تدوم طويلاً. حقيقتي مع الخير ضد الشر. الجميع يدّعون أنهم يقفون بجانب الخير حتى لو كانوا أشراراً. ذلك يعني أن الخير حقيقة مفضلة على الشر. أنا حقيقة الخير وسلمى حقيقة الشر [تضحك]. أستغل غياب سلمى وأدعي ما أريد، فهي لا تعتقد هذا. هي تعتقد أيضا أن حقيقتها مع الخير ولصالح الناس.. بالنسبة لي الخير والشر متساويان، ولا يهمني هذا الأمر إن شئت الدقة، المهم هناك حقيقتان. أنا سأعرض حقيقتي. ولن أعرض حقيقتها لكم لأنها ستأخذ الوقت المخصص لي. بالطبع هناك تناقضات في حقيقة كل منا. فهذا ما يمكن الاعتماد عليه لإقناعكم بحقيقة نهائية.. حقيقة نهائية! هذا تعبير سخيف لكن الكاتب أصر عليه..

الحقيقة ليست بالألوان؛ الحقيقة دائما ترتدي الأسود والأبيض. هكذا كانت تقول سلمى. أضحك وأجيبها: ولهذا أنا لا أحبها. ليس أنا فقط، لا أحد يحب الحقيقة عندما

يواجهُ بها، أقصر طريق لفقدان صديق هو مواجهته بحقيقته. وإن كان متسامحاً ومدعياً لقبول الرأي الآخر ولم تفقده من أول مرة، جرب كرر أمامه حقيقته كما تراها أنت عدة مرات. إنها وصفة مجربة لتخريب العلاقات. جرب أن تقول لزوجتك ما هذه الملابس السخيفة التي ترتدينها دائما! أو أعد عليها اسبوعياً، يا ألله كم تثرثرين كأنك «بالعة إمرأة». أو قولي لزوجك: آه لا تقبلني أرجوك فرائحة فمك كريهة.

لم يعد أحد يرتدي الأسود والأبيض فقط، الناس بالألوان، الصور بالألوان، الرسم بالألوان؛ لذلك الجميع لا يحبون الحقيقة التي بالأسود والأبيض [طبعا أنا أدعي أن حقيقتي ملونة..]. الكاتب حذرني من هذه الجملة «لا أحد يحب الحقيقة» قال إنها إطلاقية واستبدلها بـ «كثيرون لا يحبون الحقيقة». لكني شخصياً لم أقابل أحداً يحب الحقيقة في حياتي.

أعود لحياتي. باختصار شديد اعتقل أبي.. ومات في المعتقل، أمي لم تتزوج فقد ربتني أنا وأخي الذي سافر بعد تخرجه من الجامعة إلى دبي، لم يتوفق بعمل مناسب طوال سنين كما يقول، ولم يرسل لنا قرشاً.

أما أنا فدرست اللغة العربية. وتخرجت بأربع سنين، و«ما طلعت الأولى ع الصف» [بتنغيم]. الذين يدرسون لغة عربية آخرتهم مدرسين يربون الأجيال.. وأصعب شغلة بالعالم هي تربية الأجيال. التربية صعبة لكنها مهمة. أهم شيء.. لذلك عندما نشتم أحدا نقول له: يا قليل التربية. هذا ليس همّ الأهل فقط، بل همّ الأنظمة أيضاً. الأنظمة تنظر لنا كشعوب قليلة تربية؛ لذلك تصرف أموالا طائلة لتربيتنا، تصرف على السجون والمعتقلات والمحققين والجلادين و... تريد أن تربينا وتؤدبنا. هذه مهمتها التي نذرت نفسها لها، تفعل كل شيء من أجل أن تربينا، ونكون [شطورين ومطيعين ونسمع الكلمة.. واللي

ما يسمع الكلمة شو بيصير فيه؟ نوديه على «غرفة الفيران»..].

هذا ما فعله النظام بأبي.. أخذه على «غرفة الفيران» مع أنه لم يكن صغيراً. لكن الأب والأم يربّون أولادهم الصغار ويساعدهم في ذلك المعلمون والمدرسون، وطبعاً العصا خرجت من الجنة لذلك أهلنا ومدرسونا ربّونا بالعصا ونحن صغار، لكن النظام استخدم هذه العصا كي يربي الكبار قبل الصغار.. لأن الكبار أيضاً لا يعرفون مصلحتهم.. والله العظيم هذه حقيقة. فعلاً كثير من الكبار لا يعرفون مصلحتهم وناقصهم تربية. جارنا تزوج وحدة «استغفر الله» وترك عيلته وأولاده لأمهم المصابة بألف مرض لتربيهم.. ومن سنين لاحس ولا خبر.. هذا بصراحة يحتاج تربية، ويجب أخذه إلى «غرفة الفيران» حتى لو كان كبيراً...

ما أقوله لكم هو الحقيقة التي أرويها عن حياتي. هناك أشياء لا أستطيع أن أصارح أحداً بها. في حياتي، وفي حياة كل منكم أشياء كهذه. المهم دخلت وخرجت من كلية الآداب.. لم أتوظف لأن أبي كان قليل تربية وحاول النظام تربيته لكنه مات قبل أن يتربّى، عجز النظام عن تربيته. وإذا كان أبوك يحتاج تربية، كيف سيربيك؟ أكيد ستكون قليل تربية، وعليك أن تقبل شتيمة «يا قليل التربية» عن طيب خاطر لأنها حقيقة. لن يتركوك تربي الأجيال وأنت شخص قليل تربية. بالتأكيد ستفسد عليهم تربيتهم، وإذا كانت أي وظيفة تحتاج لموافقة أمنية واحدة فالعاملون في التربية والتعليم يحتاجون موافقة كل الفروع الأمنية وعد إذا تقدر تعد .

ولأن أبي مات وهو قليل تربية، كانت الوظيفة بعيدة عن «شاربي» في زمن النظام الذي عشت وتربيت وترعرعت في ظله، ترعرعتُ.. هأ هأ هأ هأ.. ترعرعتُ.. من أكثر الكلمات صعوبة هذه الـ ترعرعتُ، ثقيلة على النطق وجرسها الموسيقي لا يوحي بمعناها.. المهم

ترعرعتْ، ترعرعتُ في ظل هذا النظام.. [رعرعني ع الخدين شو ها الجسارة...] هأ هأ هأ، للمرة الأولى أجد هذه الكلمة معبرة. فعلا لقد ترعرعنا جميعا.. النظام رعرعنا كلنا، وبينما النظام يرعرعُ أبي مات كما أخبرتكم، فترعرعت.. هأ هأ هأ، ترعرعتُ.. دون أبٍ، رعرعتني أمي، ترعرعت وأبي يترعرع في «غرفة الفيران»، عشرات الألاف رعرعهم النظام في غرف الفيران مثل أبي، وعندما يترعرع أبوك في السجن وانت تترعرع خارج السجن في ظل النظام الذي لم يكن هناك ظل إلا ظله، فهذا كافٍ كي تكون مجرما حتى لو لم تكن تعرف لماذا ترعرع أبوك ومات في المعتقل..

حسناً هذه تداعيات قد تجلب تعاطفكم وضحككم لكنها قد تفقد النص تماسكه، وتشتته بين سيرة حياتي أنا وسيرة حياة عائلتي. فلا يمكن سرد سيرة حياة العائلة من وجهة نظري والادعاء أنها كانت حقيقة . ثم أن وقت العرض قصير ومحدود.

لكن بالله تعالوا نفترض أن أبي ترعرع فقط عشر سنين في السجن، وخرج يكمل ترعرعه في ظل السجن. هل تتخيلون أن يكون مؤيداً للنظام الذي رعرعه؟ لا أتصور، لا أتصور أن يساند أبي هذا النظام لو كان حيّاً، المتناقضات تقول ذلك. المتناقضات التي قررنا استخدامها لكشف الحقيقة.. لكن المتناقضات نفسها تقول إن ما من سبب يجعل زوجي يساند هذا النظام. فقد تزوجته لأنه يشبه أبي [باستعراضية شديدة] وكل فتاة بأبيها معجبة. لكني اكتشفت حقيقته.. ما علينا..

المهم يا سيدي [تقلب الأوراق التي في يدها] يجب أن نختصر. الوقت يداهمنا وأنا ما زلت في البداية، قد أستهلك وقت العرض كله دون أن أترك لسلمى وقتها المخصص لعرض حقيقتها.. [تنظر إلى ساعتها] تأخرت هذه الغبية.. هذه الـ سلمى تدعي أنها تتمسك بالحقيقة، وأن الحقيقة بالنسبة لها شيء مقدس، لكن ولا مرة جاءت على الموعد إلا إذا

كانت جالسة بشكل مسبق في مكان الموعد وهذا يحدث عندما يكون اللقاء في بيتها فقط...

ما هذه الترهات علينا أن نستغل الوقت بأشياء مهمة، أشياء كبيرة تهم أوسع شريحة من الجمهور. لنتحدث عن حقائق تهم الشعوب، لا مجرد حقائق عن حياتي وحياة سلمى..

إذن وبسرعة سأقول لكم: عندما أحرق البوعزيزي نفسه كنت بأبوظبي... حدث كبير لكنه ليس جديداً وتعرفونه بالطبع. ومثل كل الناس التي ربّتها الأنظمة وترعرعوا في ظلها، عشتُ أيامي أتابع الأخبار، بدلت صورتي إلى علم تونس في صفحتي على الفيس بوك. ووالله العظيم كنت أبكي كلما سمعت أحمد هرمنا..

كنت أسمعه لوحدي مثل المجنونة، وأبكي أبكي [هرمنا في انتظار هذه اللحظة التاريخية] وبعدين [تبكي الممثلة] وبعدين لما بن علي هرب.. [باللهجة التونسية وهي تمسح دموعها] لما بن علي هرب وشفت العويني يصرخ [يا توانسة يلي عذبوكم.. يا توانسة يلي قهروكم.. يا شعبنا يا عظيم.. يا شعبنا يا غالى.. تنفس الحرية الآن.. بن علىّ هرب...] ارتعشتُ، ارتعش كل جسمي. شعرت بلذة لم أشعر بها بحياتي. وصلتُ إلى ذروة لم أصل لها في كل حياتي العاطفية والزوجية. كان جسدي يرتعش مع النداء. كنت أشعر أني أعانق حبيبا فارقني سنينا طويلة والتقينا.. وأنا أرتعش قلت «يا بيي بن علي هرب يابيي..». وقتها اتصلت بأمي وأنا أبكي أقول لها «يا أميييي بن علي هرب». ما حكينا.. كانتْ تبكي وأنا أبكي، وبقينا هكذا لا أدري كم من الوقت.. لم أعد أذكر تفاصيل ما جرى بعدها... وجدت نفسي صباحا والمنبه يرن نائمة على الديوانة.. قمت أيقظت زنزون وفطّرتها، ورحنا إلى المدرسة وأنا قلبي يتقافز، فرحانة.. أريد أن أرى رد فعل المعلمات على هروب بن علي.. وأنا في الطريق اتصلت بسلمى وقلت لها: «ولك شفتي شفتي شلون بن علي هرب.. وطلعت

تربايته للشعب التونسي فاشوش..»

لم أكن أتخيل إلا أن تشاركني سلمى فرحي.. كنت أتوقع أن نقفز معاً على التلفون ونحن نتبادل التهاني.. لكن سلمى صدمتني.. وتقمصت اللهجة المصرية ببرود وهي تقول لي:

- «ومالك فرحانة أوي كدة يختي...». تلعثمتُ..

-«شلون يعني! شو قصدك! يعني شو قصدك! يعني شلون مو فرحانة فـ...»

- «يعني مبسوطة أنو بكرا يستلموا الإسلاميين بتونس.. حبيبتي بكرا ما يظل مهرجان قرطاج اللي حضرتك وحضرتي نحلم نعرض مسرحيتنا فيه.. أو يصير لازم نعرضها بالنقاب إذا بقي قرطاج...»

بوهن شديد جاوبتها :

- «شلون يعني مين قال أنو هيك رح يصير...»

-«هي الحقيقة وبكرا تشوفي...»

لا يمكنكم تخيل صدمتي.. نزل ضغطي وسكرت تلفوني. رجعت دقت لي فقفلت الموبايل كله...

ضيعت لي فرحتي الله ينتقم منها. معقولة هناك ناس يفكرون بهذه الطريقة. معقولة لأجل عرض مسرحي لا نشارك التوانسة فرحتهم التي أعطتنا الأمل. معقولة سلمى لا تفكر غير بحالها ومسرحيتها وهي ترى شعباً أعزل يطيح بديكتاتور ويجبره على الفرار. لا أصدق. حتى لو استلم الإسلاميون يسطفلوا.. إذا الناس انتخبوهم يصطفلوا.. لا أحد

يقول لي إن الأكثرية ليست دائما على حق، ويحتج بقصة الأكثرية التي كانت مع لباس الملك العاري.. لأن أكثرية الملك كانت مع الكذبة بينما أكثرية البوعزيزي صدقت الحقيقة، وصارت معه. صدقته وو.. بن علي هرب. هذه حقيقة تريدونها أسود وأبيض تريدونها ملونة أنتم أحرار .

لا أريد أن أطيل في هذه النقطة، فما زال أمامنا فترة طويلة يجب أن نتحدث عنها كي نصل إلى متن هذا العرض... المهم عندما بدأت المظاهرات في مصر كنت بأبوظبي.. وعندما بدأت في اليمن والبحرين وليبيا وعُمان وسوريا... لا.. لا لن نلحق. لن أستطيع الحديث عن كل هذا ضمن عرض مسرحي.. هناك آخرون يمكنهم الحديث عن ذلك. لست مؤرخة للربيع العربي، المطلوب هو عرض مسرحي بوقتٍ محدد وليس الحديث عن «تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». نعم هذه حقيقة علينا ألا نتجاهلها. العرض لا يحتمل..

يمكن أن نبدأ بجملة [وعندما قامت الثورة في سوريا كنتُ بأبوظبي...] يجب أن نترك لآخرين أن يكتبوا عن تلك الثورات. يجب أن نتحدث عن الأشياء التي نعرفها ونترك الآخرين يتحدثون عن أشياء يعرفونها. في هذا العالم كل شخص يجيد أمراً محدداً أكثر من الآخر. علينا أن نؤمن بالاختصاص.

نعم عندما قامت الثورة في سوريا كنت في أبوظبي وأخي في دبي وأمي.. آآه أمي.. يا ألله كم مشتاقة لها.. كم أحبها. سأحكي لكم عن أمي التي تجاهلها الكاتب وقال إنها مثل كل الأمهات. لكن أمي والله العظيم مختلفة.. شرحتُ له ذلك وقلتُ له أن أمي كانت تظل تبكي.. فقال إن أمه أيضا كانت دائما تبكي، لكن والله بكاء أمي مختلف، أمي إذا أحد زعجها تبكي.. عندما كان يزعجها أبي تبكي، وعندما كانت تزعج أبي تبكي، وعندما لا ننفذ

لها ماتريد تبكي، وعندما تضربنا تبكي، وعندما تشعر أن العالم يخذلها تبكي، وعندما يسافر أحد منا تبكي، وحينما يعود تبكي.. بكاء أمي مسلسل مكسيكي...

مرة كنت راجعة من الجامعة، وعادة أول شيء أفعله عندما أدخل المنزل هو أن أبحث عنها لأقبلها أو ألقي التحية عليها حسب مزاجي، الذي غالباً يكون مكدراً؛ بعد معركة المواصلات التي أخوضها كي أصل البيت، وإذا كانت الفتاة فيها مسحة من الجمال مثلي لكم أن تتخيلوا حجم المضايقات التي تواجهها.. لا والله ليس شرطاً.. بجمال وبدون جمال بشورت بحجاب.. كلهن يتعرضن... الرجال يتفشوشون بنا. أو يمكن لأنهم عاطلون عن العمل يقطعّون الوقت بمعاكستنا.. وربما بسبب الكبت... لن أطيل عليكم فقد دخلت إلى غرفة أمي؛ فوجدتها جالسة أمام الكمبيوتر وتبكي بشدة وهي تكتب، لا يمكن لي أن أعتبر أن الأمر لا يعنيني؛ فعدا عن كون علاقتي بأمي مازالت حميمة، فأنتم تعرفون أن بكاء الأمهات يصيب الأولاد بشلل تام، وفي علاقتنا مع أمهاتنا نظل أولاد حتى لو كانت أعمارنا قد وصلت الخمسين.. في البداية خطر لي أنها تكتب خاطرة وتوحدت معها، واقتربت منها بسرعة خاطفة وبدأت أحضنها من خلف الكرسي الذي تجلس عليه وأقبل رأسها..

-«شو مام شبك مامي ...»

وهذا تدليع لأمي يخص شخصيتي كفتاة حنونة تحب أمها، وبالطبع سيكون الرد التلقائي لأي شخص تسأله هذا السؤال الأحمق: «ما في شي». ولا يمكن أن نتفاصح هنا ونقول إنها قالت: ليس هناك شيء يا ابنتي، لا أحد في الكون يتحدث لغة فصيحة وهو يبكي. ليس لدي غير هذا السؤال رغم معرفتي أنه أحمق. بعد لحظات من محاولة التخفيف عنها ومسح دموعها، جلست على ركبي أمامها وبدأت أمسح دموعها وأحضنها وهي في

كرسيها:

-«مامي الله يوفقك لشو تبكي. ما تبكي حبيبتي الله يخليك..»

- لماذا كانت أمي تبكي حينها؟ [تفكر].. [تهز رأسها] حتى لو كانت ذاكرتي فولاذية لا يمكن لي أن أتذكر الآن، فأمي تبكي دائما وعليّ تذكّر كل تفاصيل حياتي إذا أردت تذكّر لماذا كانت أمي تبكي في كل مرة.. يا ألله ما أحلاها أمي..

أمي مازالت صبية وهي تكبرني فقط بعشر سنوات كما كانت تصر ضاحكة لمن يسألني إن كانت أختي. تزوجت باكراً؛ وخلفت من أبي أنا وأخي الذي أكبره بسنتين. عشت معها وأبي 12 سنة قبل أن يأخذوه لتربيته ويموت من شدة التربية..

كانت أمي تضحك وتفرح عندما يحسبنا الناس أختين. لم تكن تخفي سعادتها. كنا نسخر من الأمر. لكن وجهها كان يزداد إشراقاً. هذا يعني أنها ذات وجه مشرق. نعم أمي جميلة جداً، وجه أبيض مدور وشعر خرنوبي ناعم وعيون خضراء ورثتها من جدتها الأرمنية، ولم تكن قصيرة، لذلك لم تكن تلبس أحذية بكعب عال إلا نادراً، لم تكن بحاجة لتزوير الحقيقة وتبدو أطول مما هي في الواقع، كما تفعل الكثير من النساء، ليواجهن «حقيقة» طولهن. كانت تحب المشي كثيراً. وكثيراً ما رافقتها في عادتها هذه، رغم أني لا أحب المشي مثلها، إلا أنه في بلادنا لا يفضل أن تمشي امرأة لوحدها في الشوارع وخصوصاً إذا كانت غير مزدحمة أو على أطراف المدينة كالشوارع التي تحب أن تمشي فيها أمي .سيعتبرها «العاطلون» فريسة سهلة..

أمي درست للبكالوريا وعندما جاءها الفارس على حصانه الأبيض، الذي كان أبي، تركت الدراسة رغم أنها سجلت حقوق في جامعة حلب، وتوظفت، في المؤسسة الاستهلاكية

قبل أن يكتشفوا أن أبي قليل تربية .وإلا لما حلمت بالوظيفة مثلي.

نسيت البكاء الذي هو محور حكايتي عن أمي.. لم تكن أمي تبكي على ضياع فلسطين أو بسبب العمليات الإرهابية التي تقتل الناس في الشوارع أو في بيوتهم أو في وسائل النقل، ليس لأن قلب أمي قاس، بل لأن أشياء مثل هذه لا يبكي أحد بسببها إلا أصحاب العلاقة، أهل الميتين وأقرباؤهم وأحباؤهم، أما هؤلاء الذين يدّعون أنهم يتألمون بسبب ذلك، فهؤلاء متباكون، وأمي ليست متباكية، أمي تبكي بحرقة شديدة وتفيض دموعها بصمت. عندما تشاهد صورها القديمة لوحدها تبكي، وعندما تفتش في أوراقها القديمة ورسائلها تبكي، تظل أحيانا لساعات في غرفتها وأعرف أنها تقرأ رسائل أبي لها، أو تلك القصائد التي قال لها أنها عنها أو مهداة لها. مات أبي ولم يطبع ديواناً وبقيت أوراقه عند أمي، وبالطبع لم يكن مسموحاً لنا أن نطبع قصائد شخص قليل تربية ومات قبل أن يكمل تربيته ويتخرج. هذا ما أورثه أبي لأمي. أنا وأخي وكومة أوراق وصور وبيت أجار قديم.

لا أتدخل في حياة أمي أو خصوصياتها، لكني لم أتعود على بكائها أبداً، ولأنها تريد أن تبكي بصمت ولوحدها وكي لا تسمع سؤالي الغبي المتكرر: «شبك مامي؟». كانت تخفي دموعها عني. أحياناً تلبس نظارتها الطبية لكن مع ذلك تسيل دموعها من تحت النظارة. أبي لم يكن يهتم لبكاء أمي. ربما يعتقد أن بكاء النساء أمرا طبيعيا مثله مثل تدخين السكائر. الرجال يهتمون في بداية حياتهم ببكاء صديقاتهم أو حبيباتهم لكن تلك النسوة لو أصبحن زوجاتهم لما اهتموا ببكائهن. هذا خبرته بنفسي، فقد ورثت أشياء كثيرة من أمي منها دمعتها، وإن لم يكن مثلها، فبكائي لا يشكل 10 بالمئة من بكاء أمي إلا أني أبكي أيضاً..

الكاتب المتعجرف الذي حاولت إقناعه بأن يدخل أمي إلى النص كجزءٍ من حقيقتي لأنها أم مختلفة وتبكي. قال لي: أنت تعتقدين هذا. الطبيعي أن تبكي النساء. ولوى بوزه [تقلده]

«صديقي الذي تزوج قبلي قال لي مرة: لا تتزوج امرأة لا تعرف البكاء.»

أنا أعرف البكاء، هذه حقيقة يعرفها كل من حولي. مرة كنت مع أول شخص أحببته في حديقة عامة وجلسنا على أحد الكراسي، وقتها كنا خارجين من الجامعة وعزمني إلى الحديقة لأنه مفلس مثلي. ما أن أشعلت سيكارة حتى وقف كالممسوس، مشدوهاً..

- «ولك شو شو شعلت سيكارة.. لك نحن بحديقة عامة...»

وحين أبديت استغرابي من تصرفه وأنه يعرف أني أدخن وسبق أن دخنا في محلات عامة.. بدا كمن لا يريد أن يسمع ويلقي أوامره بأن أطفئ السيكارة. حين لم أرد عليه أخذها من يدي ودعسها بكعب حذائه. لم أتحرك من مكاني لكن دموعي تحركت من عينيّ إلى خدودي... جلس أمامي يراضيني مبدياً أسفه على تصرفه. شتم العالم والبلد والناس التي لا تجعل المرء يعيش حراً حسب ما يريد. لم تقنعني مبرراته.. وعندما عدت حكيت لأمي ما حدث، كنتُ لا أخفي عنها شيئاً، إذا أحد «لطشني» في الشارع أحكي لها، أحكي لها الحقيقة دائماً.. كان رأيها أني لو كنت زوجته لعفسني كالسيكارة ولن يأبه لدموعي.

بكت أمي يومها.. حضنتها ومازحتها أني أنا التي يجب أن تبكي وليس هي. لكنها كانت تبكي من أجلنا أكثر مما نبكي على أنفسنا أو من أنفسنا. طبعا لم أقتنع بكلام أمي، فقد تزوجته لكن منذ تلك السيكارة تركت التدخين. بعد زواجي منه أضفت سبباً جديداً لبكاء أمي.

الكاتب كتب عنه أشياء كثيرة في النص، متذرعاً بأنه يجب أن تكون علاقتي الزوجية أحد محاور العرض. لكني سأتجاهل ذلك وأتجاهل كل ما كتبه عن علاقتنا. لا أريد له أن

يحضر في عرضٍ أحبه ومتحمسة له لأن وجوده في النص سيحبطني. سأتجاهله في العرض كما غيبته من حياتي. لا أريد أن أنتحر مثل أمل.. أمل التي حذفها الكاتب بحجة أن هذه تفاصيل، سأعيدها إلى النص غصباً عنه.. أمل صديقتي. تعرفتُ عليها عن طريق سلمى وكانت صديقتها المقربة. تزوجتْ من تحبه؛ فاكتشفته على حقيقته كما يحدث بين كل الازواج. عانت من الحقيقة التي اكتشفتها.. وانتحرت. نعم انتحرت. «هي هي الحقيقة اللي بدكن ياها؟» [تكررها] انتحرت أمل بسبب الحقيقة. شرفوا هذي هي الحقيقة.. قصة أمل طويلة وموجعة، كانت أكثر واحدة عرفتها بحياتي منسجمة مع نفسها، لا تفعل إلا ما تؤمن به حتى لو كان ذلك يضايق الجميع، تأقلمنا مع أمل وكانت هي الحقيقة التي تصفعنا دائما، لا أحد يحب حقيقته بعيون الآخرين. لذلك قال ماركس «الآخرون هم الجحيم».

تعاملنا مع أمل على أنها هكذا ولا أحد يؤاخذها! انظروا كيف قلبنا المفاهيم، لأنها تقول الحقيقة صرنا نتعامل معها كمجنونة.. الحقيقة إنها فعلا مجنونة.. مجنونة فعلاً. لو لم تكن مجنونة لما انتحرت بسبب رجل.. لا يوجد رجل في العالم يستحق أن تنتحر امرأة لأجله أو بسببه. انتحرت لأنها كانت مخلصة للحقيقة.. أردت أن أذكرها فقط لأبين لكم أن الحقيقة تكون قاتلة في كثير من الأحيان ومأساوية.. ما فائدة الحقيقة حين تكون قاتلة؟

نسينا المسرحية والعرض والنص وسلمى... ألله لا يوفقك يا سلمى على التأخير إنشاء الله تصدمك شاحنة وتفرمك فرم وتصير أكبر نتفة منك بحجم ذرة الغبار التي نراها تتطاير على أشعة الشمس وهي تدخل من الشبابيك. كانت سلمى تضحك حينما تسمعني أدعي عليها هكذا. مرة كنا نمشي مع بعض وكنا نريد قطع الشارع واقتربت شاحنة لكن المسافة

كانت كافية لنعبر. قلت لها: «يالله نعبر».. وقفت وقالت: «لا والله ما حزرتِ تريدين أن يتحقق دعاءك علي..»

[تتجه إلى الطاولة وتقلب الأوراق..] والله شكلنا لن نلحق لا عرض ولا طول... حتى الآن لا يوجد أي فكرة مكتملة.. ومساحة الارتجال التي تركها الكاتب لنا ذهبت في الحديث عن حقيقة حياتي.. أين الصفحة المكتوب عليها.. [وعندما قامت الثورة السورية كنت في أبوظبي...] [تبحث ولا تجدها]

المهم يا سيدي نرجع لموضوعنا.. يوم 15 آذار [المصريون والمغاربة يقولون مارس] عدتُ مبكراً من المدرسة. يوم عادي مثل كل الأيام.. صباحه يشبه كل الصباحات.. كل شيء في مكانه.. ومثل كل مرة. جليت الجليات البايتة من أمس.. نفضت غبار الوقت.. ورتبت وجه البيت.. ومشطت شعره.. كانت الدنيا صارت عصراً تقريباً عندما أنهيت شغل المنزل. شغلت التلفزيون وأنا واقفة لأشوف «شو في مافي بها الدنيا».. وإذ بأحد القنوات المصرية تعرض خبرا ولقطات عن سوريين يتظاهرون أمام السفارة السورية في القاهرة. كان أحد المتظاهرين يرفع لافتة تطالب... تطالبه.. تطالبه بالرحيل. ما صدقت. قلبي صار يدق ورجليّ لم تعد تحملني من كثر ما صرت أرجف... آآآه اليوم 15 آذار.. أي والله كيف نسيتِ يا غبية.. قعدت على الكرسي وصرت أقلب كل القنوات. لا شيء عن سوريا.. رحت إلى كمبيوتري وأنا أفكر أين أجد خبراً عن سوريا. فتحت غوغل وكتبت مظاهرات في سوريا.. ما صدقت.. ما صدقت لما طلع لي خبر عن مظاهرة بقلب الشام.. لما شفت فيديو المظاهرة بالحميدية صرت نط: «يس يس يس طلعوا». جاءت بنتي تركض: «شو ماما شو ماما..». قلت لها: «تفرجي حبيبي، شوفي شوفي.». كبرت عرض الفيديو على حجم الشاشة. عرضت المظاهرة لزنزون. قالت بجدية: «يعني بدن يسقطوا النظام ماما؟» حملتها بين

يدي رغم ثقلها وشلفتها للسقف، وأنا أقول: «أي ياماما بدن يسقطوه.» وأشلفها وهي تصيح نزليني.. نزليني وأشلفها وأعيد: «والله يا ماما بدن يسقطوه..». لما حسيت إنها ستبكي نزلتها وحضنتها.. «والله يا أمي رح يسقطوه». هدأت بحضني. قلت لها: «مانك جوعانة حبيبي». قالت بعد أن استعادت قدرتها على المشاكسة وابتعدت عن حضني: «بدن يسقطوه ليش تشلفيني لفوق. أنا زعلانة منك..». وراحت غرفة نومنا.. لحقتها وصرت أنكشها: «لا زنزون.. لا حبيبي ما وقت تزعلي. يالله قومي نحط أكل ونطلع نسقط النظام.». نسيت حردها مني وقالت: «وين». قلت لها قومي نأكل وبعدين سأقول لك. أكلنا وشغلت الفيديو من جديد، وكتبت لها على كرتونة «الشعب يريد إسقاط النظام» قلت لها إحمليها وأنا وراءك. صرنا نهتف أنا وهي بالبيت «الشعب يريد إسقاط النظام». خلصنا مظاهرة وراحت زنزون تكتب وظائفها وأنا بقيت أشاهد المظاهرة. ظليت عيد فيها وأبكي.. شيء لا يوصف. والله العظيم حتى الان لما أتذكر تلك اللحظة قلبي يوقف..

خبرت سلمى أنيسة روحي. وقتها كانت بالشام. من شهر وهي بالشام في دورة إخراج أفلام وثائقية؛ لتؤرخ الحقائق. كما كانت تقول ساخرة. قلت لها: «شو سلوم شلونك وشلون الشام معك؟». وهذا أسم الدلع الذي أناديها به حينما أكون راضية عنها، أو يكون مزاجي بالعلالي.

قالت لي: «والله اليوم خالتي.. خالتي اللي بالحميدية عاملة مجدرة تجنن وأكلنا لشبعنا كانوا كل الشباب هنيك...»

قلت لها: «ومن إيمتى بعدي عندك خالة»

ردت: «ولك شبك خالتي اللي بالحميدية.. خالتي هتاف افتحي اليوتيوب تلاقي فيديو عن

طبخها.»

كان صوتها يرقص هكذا أحسست، نادراً ما تكون سلمى فرحة ويتسرب هذا الفرح عبر صوتها. لكني لم أفهم. قلت لها: «ولك مين خالتك هتاف؟». ردت سلمى بضحك وتأفف: «إنت مخك مسكر. اليوم عيد ميلاد ابنها وليد.. اليوم 15 آذاااااار... وطلعنا.. قصدي رحنا لعندها...». ضحكت ضحكت. قلت لها: «آآآآه خالتك بالحميدية... كنتِ هنيك وليك سلوم.. يا ألله ياسلوم نيالك، ياألله لوكنتم معكم بعيد الميلاد هذا..» وضحكت بصوت عالٍ كما لم أضحك في حياتي. قالت لي: «باي باي إنت شكلك سكرانة ورح تفضحينا».

سلمى درست صحافة، لم تتوظف، تكتب هنا وهناك في صحف الخليج والصحف اللبنانية، ومواقع إلكترونية. اشتغلت في أكثر من مكان وتركت. دائما دائما صاحب العمل «يحط عينه عليها..». كانت سلمى جميلة. لا، كانت ومازالت جميلة. أصلا يشغلونها على أمل «تطبيقها». اشتغلت في أماكن لا علاقة قربى ولا نسب تربطها مع الصحافة أو الكتابة. مشكلتها تبدأ عندما تتكشف نوايا صاحب العمل على حقيقتها، تترك الشغل. هذه حقيقية نعرفها أنا وسلمى، لكنها كانت ترد على من يسألها لماذا تركتْ الشغل بأنه مرهق ولم يناسبها .كنت أعارضها وأقول لها: «يا بنتي طنشي». وهي تصر على أنها لا تستطيع أن تبقى في مكان تحسّ أنها تغتصب فيه كل لحظة.

يجب أن نختصر. العرض يجب أن يكون قصيرا ومشدوداً، لا نريد تفاصيل مملة. صحيح أن الكاتب ترك لنا مساحة للتحدث عن حياتنا الحقيقية، لكن ذلك لا يعني أن نضيع الخيط الأساسي للعرض. يجب أن نعرض «متناقضات»، كي تُبنى الحقيقة. ابتعدنا عن المتناقضات ومشينا في خط مستقيم.. لأ؛ مشيت وليس مشينا. لأنه لا يوجد أحد غيري في العرض حتى الآن. الحديث كله عني. عن حياتي الحقيقية . سلمى حتى الآن مجرد ديكور

لعرض حقيقتي..

المهم يا سيدي بعدما بدأت الثورة واشتد عودها؛ بدأتُ «أندس» يوم وراء يوم. أعودُ من المدرسة أنا وبنتي نأكل بسرعة.. هي تنام وأنا «أندس» في صفحات الفيس بوك.. تطوعت بإحدى الشبكات الاخبارية.. كانت مهمتي نشر فيديوهات المظاهرات مع تعليقات أو توضيحات حولها.

يا ألله كم كانت أيام مليئة بالحماس والفرح والأمل، أشعر أنها لن تتكرر.. لكن طالت القصة وكثر الموت.. وكثر «العلاكين». وفاعوا علينا من كل مكان. من الشاشات من الصحف من الفيس بوك. مرة كتب صديقي على صفحته «هربنا من الانتهازيين إلى الثورة فوجدناهم قد سبقونا» أذكر حينها كتبت له «يجب أن نفرح، فالانتهازيون يحسبونها صح. هذا مؤشر على أن الثورة ستنتصر» .

صرت أسمع كل يوم ما يسم البدن، وإذا لم ينسم بدني من التلفزيون فالفيس بوك يتكفل بالأمر. بالبداية كنت أدخل وأناقش وأعلق على صفحات أصدقائي وشبكات الأخبار وصفحات ناس لا أعرفهم.. كنت حتى وأنا أنتقد أحاول أن أكون «حنونة» لكن طلعوا مؤخرا بنغمة «اللي برا ما من حقوا يحكي».. تحديدا لما ننتقد أخطاء الثورة وابتعادها عن حقيقتها.

من بداية الثورة اشتريت مفكرة وصرت أسجل فيه أسماء الشهداء وفي أي مدينة قتلوا.. زادت أعدادهم. وقلبي صار يجف من الدم كل ما يمر يوم جديد ويسقط ضحايا جدد، فلم أعد أستطيع فتح الدفتر لأني كنت أبكي على كل أسم أسجله. ولولا زنزون ما بقي بي قدرة حتى على أكل لقمة. صرت أمشي أجر نفسي جر، كأني أحمل جثتي، أصبحت عيوني

زايغة وساهية كأني سأنام الآن. أشرد عن الذين يتحدثون معي. كانت الكلمة التي أرددها: «صح. أي صح». كي أشعر محدثي أو محدثتي أني معه.

مرة كانت زميلتي بالمدرسة تحكي معي وأنا أرد عليها بمفردتي الوحيدة. «صح. أي صح». سألتني إن كنت سآتي مساءاً إلى قهوة [اسم قهوة] حيث نلتقي إسبوعياً قلت لها: «صح. أي صح». هزتني من كتفي وهي تقول: «شفيك. إنت مانك هنا» عدت من شرودي بتثاقل قلت لها: «ما في شي.». فأعادت عليّ السؤال. قلت لها: لا.. تعبانة. تمتمت «الله يعينكم»..

أصبحتُ أعود إلى البيت، وأنا مشلولة من العجز الذي أنا فيه. أفتح التلفزيون لأرى حارتنا يتردد أسمها على كل شاشات العالم. لقد جعلنا الموت مشهورين، ليس هناك أحد في العالم لم يسمع بحارتنا. كانت مسرحاً حقيقياً للأحداث. ظلت فترة طويلة مسرحاً يبث بشكل مباشر للعالم أغانيه وأهازيجه. يا ألله الثورة السورية مليئة بالمتناقضات، موت ودبكة، تشييع وأغاني، قناصة ومظاهرات... قصف وسخرية... رآنا العالم ونحن نشيع قتلانا بالغناء. [سكابا يادموع العين سكابا.. على شهدا سوريا وشبابا]. غنينا حتى في المساجد..

أصبحت حارتنا مكاناً تنتشر منه رائحة الحرية والموت. لكن ريحة الموت كانت تصل لعندي وكنت أختنق. لم يعد بي قدرة على متابعة الأخبار، وحتى لا تراها زنزون أيضاً. كنت أتلذذ بتعذيب نفسي وأشاهد كل الفيديوهات التي عليها تحذيرات لأصحاب القلوب الضعيفة .بعد أن تنام.

من كم يوم زنزون لم ترض أن تدخل غرفة نومنا وبدأت تبكي.. سألتها عن السبب. قالت: «شفت الأسد بالعتمة متخبي يريد ياكلني».

ضممتها، وأخذتها إلى الغرفة ونمت بجانبها. قلت لها وأيدي تلامس وجهها: «مامي ما تخافي ما بيقدر يدخل بيتنا.. لأن لا أحد يحبه هنا..». بقيتْ ترتجف إلى أن نامتْ .

خلص. آمنت أن هناك حقيقة. على الأقل الموت أصبح حقيقة يومية في حياتي. كما قلت لكم الحقائق دائماً موجعة. وعليّ مواجهة الحقيقة والوجع يومياً. لا يمكن لي أن أقول هنا: ما فائدة الحقيقة إذا كانت موجعة أو قاتلة. هناك حقائق مفروضة علينا لا نستطيع الهروب منها.

هذي هي الحقيقة، هذي أنا. سلمى صارت «تاكل هوا» وتقول لي: «إصحي إنت ما تعرفي الحقيقة على الأرض. ما يعرض على الشاشات ليس الحقيقة، هناك حقيقة ثانية غير التي تشاهدينها. القصة ما عادت إسقاط النظام. ألله لا يرد النظام. لكن البلد تتدمر.. هناك أناس آخرين يقتلون، غير الذين ترينهم على الشاشات. غير الذين تعرفينهم. أنا أعرف أناس آخرين قتلوا لم يشيعهم أحد، حتى النظام جعل موتهم يمر بصمت، يُخرج الأموات من حساباته ليحتفظ بتأييد الأحياء. هناك ناس آخرين يخطفون ويقتلون... الكل يريد تدمير البلد ولن يرتاحوا إلا يخربوها ويقعدوا على تلتها...».

ياسلمى ماذا بقي من تلتها ليقعد عليها أي أحد. حتى التلة سرقوا ترابها... آخ يا أمي آخ...

[ترمي الأوراق على أرض المسرح.] يلعن أبو المسرح ما عاد أريد لا مسرح ولا «ضراب السخن». سلمى ستسم لي بدني بروايتها للأحداث التي تصر على أنها الحقيقة ومتمسكة بها.. هذي الحقيقة يا سلمى صارت أسود وأبيض مثل ما تريدين.. الآن صرتِ تقولين إنها ملونة؟ وهذا الكاتب المتذاكي مصرّ على عرض جوانب الحقيقة [تقلده بسخرية] جوانب الحقيقة.. أي حط جوانب الحقيقة بطيـ.. ك...

ماذا بقي من متناقضات لم يقصفونا بها. كل هذه المتناقضات وما بيّنت الحقيقة.. سأضع كل هذه المتناقضات بكيس وأعطيها لسلمى تطبخها مجدرة.. نسيتِ يا سلمى! عندما كنتِ فرحانة بالمجدرة بالحميدية.. وصوتك يرقص! الآن صار سوريا ستخرب وتتدمر... الآن ما عادت الحقيقة أبيض وأسود... الدنيا كلها صارت أسود وأبيض.. أيامنا كلها صارت أسود وأبيض. بقيت الصور تخرج من سوريا ملونة.. الشهداء يشيعونهم بأعلام ملونة، وأرواحهم تصعد للسماء ملونة.

زمان كانت الصور أسود وأبيض لكن حياتنا كانت ملونة.. لا.. حياتنا ما كانت ملونة كانت سوداء. نعم حياتنا كانت سوداء فقط لكن كنا مجبرين نشوفها بالألوان. كان الخوف يلوّن حياتنا لكنها كانت سوداء مرسومة بدم جاف وصراخ مكتوم.. صور أبي وأمي أغلبها أسود وأبيض وإذا كانت ملونة تكون باهتة.. بآخر سفرة رفعتها كلها على الكمبيوتر. اشتريت «سكنر» وأخذته معي. وقتها قلت لأمي وأنا أضحك سأرفع الصور وأخزنها عندي، ممكن يحترق البيت سأحتفظ بها. أمي قالت لي: «الناس تكبر ويكبر معها عقلها إلا أنت كل ما كبرتِ يخف عقلك». وأنا أشاكسها وأرد: «ليش يا أمي يعني عود كبريت ممكن يحرق البيت. ماس كهرباء..». تنهرني بشدة: «اسكتي.. اسكتي.. لك لا تفاولي علينا برضاي عليك...».

لا أحد رمى عود كبريت ولا صار ماس كهربائي.. لكن بيتنا تهدم. بيتنا قصف مثل بيوت كثيرة.. أمي تركت البيت وراحت على حلب عند خوالها.. [ياررايحين ع حلب حبي معاكم راح] وخالتي أصيبت ونقلوها إلى لبنان... آخ يااااا أمي..

والله مابقي بي حيل لأظل واقفة وأكمل لكم العرض. المتناقضات لا تنتهي.. الحقيقة ستظل تبنى. وسلمى لن تأت، فهي لم تغادر البلد مثلي.. و.. عليّ إنهاء العرض.

[تجلس على الكرسي وتنظر إلى الجمهور وبعد فترة صمت وتنهد]

اتركوني من الكاتب واللي كتبه، خلوني إحكي.. خلوني طالع هالشي من صدري دفعة وحدة ولخصلكم حقيقتي لأنو ما بقي معنا وقت وأنا تعبت من الذكريات..

من أول ما بلشت الثورة، وأنا حاسة متل اللي واقفة برا بيتها، كنت حاسّة متل الغايبة عن عرس، الكل فيه عم يغني ويبكي ويثور.. وأنا محبوسة برّا.. برّا بلدي اللي كان عم يعلي صوته أخيراً.. كل يوم كنت شوف الشوارع والناس عم تمشي.. تركض.. تصرخ.. وأنا متل حجر مشلوف بطريق ما يمر بيه حدا، موجودة بس بدون حياة، فرحانة وكلّي رجفة. أعلي صوتي بس يطلع.. يطلع مبحوح، مخنوق بين جدران غريبة أصرخ لحالي وأعرف حتى صرختي ما توصل..

قبل الثورة كنت حس بالغربة بس بعد الثورة صرت غريبة عن جد.. برّا بلدي وهو يغني ويرقص بالساحات، برّا روحي.

ما تركت البلد لأنو بدي هاجر لمكان أفضل.. لا والله، طلعت لأنو ما ضل مطرح، ما ضل باب ما تسكّر بوشي. خلصت الجامعة بأربع سنين.. ما تأخرت ولا سنة.. بس ما لقيت شغل.. شهادتي اللي أخذتها ما اشتغلت فيها، فأبي كان قليل تربية متل ما خبرتكم.. فظل اسمه يلاحقني.. ما توظفت بس اشتغلت.. غسّلت صحون، ونظفت مكاتب، اشتغلت بأي شغل ألاقيه. ما عم بتذمر، بس عم خبركم حقيقتي.. صارت طلعتي ع الإمارات.. إجت فرج.. قعدت عند أخي كم شهر، لقيت شغل بمدرسة دولية بأبوظبي عن طريق بنت فلبينية تعرفت عليها بمقهى.. راتب معقول وسكن وسيارة.. رجعت لوسواسي القديم؛ الكتابة. لما كنت بسوريا كنت أكتب وما أنشر، هون صرت اكتب

وانشــر مقالات أون لاين، ما طولت القصــة لحتى خبرتني أمي إن الجماعة إجو ســألو عني.. ومن يومها ما رجعت.. وصرت عدّ الأيام والليالي، واستنى القدر بلكي شي يرجّعني.. صــار غزو العراق.. قلت خلص قربت.. الدور عليهم.. فعمامنا الأمريكان كل يوم إلهم تصريح ضدهم.. إي إي عمامنا عمام العالم كله.. اغتالوا الحريري وقلت خلص انتهوا.. مو بس قربت.. بدي أرجع.. بدي أرجع مطرحي وذكرياتي، ما عاد بدي ظل مقيمة..

أول ما بلشت الثورة كنت خايفة تخلص.. بس كبرت الثورة، وكبر معها قلبي، وكبرت الغصّة بحلقي. بعد ما بلش القتل والقمع والاعتقالات والحصار والتدمير، كنت استغرب كيف الناس ما تاخد موقف من ها النظام مو موقف سياسي موقف من الألم، من الدم، من القهر.. من المجازر..

بالفترة الأولى، كنت احكي.. اكتب.. ابعت.. شارك.. وانتقد.. فصار يهجموا علي من الطرفين.. اللي ضد والرماديين يقولوا شرفي انزلي ع البلد وشاركي.. انت برّا مأمنة ع حالك وتحرضي الناس لتطلع وتدفع الثمن.. واللي مع الثورة بس انتقدت الاخطاء يقولوا انت برّا واللي بالداخل هم اللي يقرروا ما يحق لك تنتقدي حدا..

برّا؟ إي برّا الجغرافيا، بس جوّا.. جوّا بالتفاصيل، باليوميات بالساعات.. أنا ما طلعت لحتى أتهنّى، طلعت لحتى أخلص من ذل لقمة العيش، وما كنت عايشة.. كنت عايشة بنصّي التاني، اللي كان ضايع بسوريا.. كنت عايشة ع أمل ارجع.

أنا برّا؟ أنا اللي من بلش قتل المتظاهرين صرت أدوّر بوجوه الشهداء، يمكن ألقط ملامح ابن الجيران اللي عشقته وأنا زغيرة.. أنا اللي لما سمعت اسم حارتي على الأخبار أول مرة، رجفت، فرحت حتى وهم يقولو إنها محاصرة.

ما حدا يزاود عليّ بحب البلد. أنا كتبت لما كانت الناس ساكتة.. وما كنت خايفة بس ما كنت أتوقع إني بعدها مارح أقدر أرجع.. مرت السنين وكل سنة بقول رح أرجع إلا ما يصير حل لها النظام..

ما رجعت، وصارت الثورة.. وحارتي صارت تراب واللي بقي من جيرانا وقرايبنا صاروا بالمخيمات.. كيف بدّي أرجع إذا المدن صارت خرابة، والناس اللي بتحبني وأحبها إمّا هربوا، أو ناموا تحت التراب..

كل شي تغيّر.. حتى وجهي بالمراية صار غريب. بس كنت مقتنعة إنو في شي جوّا بعدو بيقول.. ما خلصت الحكاية.. ولسّه في مطرح، ولسّه في يوم.. بس وين أرجع!

شو ضل منّي؟ صور أصدقاء وجيران وقرايب وملصقات الثورة عـ الحيط.. اللي استشهد واللي اختفى وبيوت مدمرة.. وين أرجع.. على قولة المتنبي لا أهل ولا وطن.. أرجع وين بدون أهل وبدون سلمى...

سلمى انقتلت خبيت عنكم هي الحقيقة لآخر العرض. [تقف الممثلة وتمشي وهي صامتة ثم تعود للجلوس على الكرسي.. تبكي وتتابع] يمكن كانت تهرّب أدوية للجرحى في المشافي الميدانية وقتلها رصاص قناص.. يمكن كانت تهرّب خبز ومي للناس المحاصرين وتمزقت بقذيفة. يمكن اعتقلوها وماتت وهم يربّونها.

سلمى لن تأتِ، لم يعد أحد من الموت. أنا أعرف هذا منذ البداية والكاتب يعرف.. لكن قلنا نخبي «حقيقة» سلمى للأخير.. شفتوا كم التناقضات. اللي بالحقائق! هذه حقيقة سلمى. مثلنا تحب سوريا. والحب يقتل والحقيقة تقتل.. وموت سلمى كسر ظهري. صرت يتيمة. يتيمة بدونك يا سلووووم..

[تقف الممثلة وهي تبكي تتحرك على المسرح ثم تجلس على الأرض مستندة على الكرسي تلتقط حقيبتها من جانب الكرسي، تسحب الهاتف ببطء]

بحياتي حفظت رقم تلفونين بيت أهلي وموبايل سلمى.. يمكن الموبايل لسه معها، يمكن الصوت بيوصل لو حتى من تحت التراب. [تضغط زر الاتصال. تصمت. ترفع الهاتف لأذنها. تنتظر. لا ترد].

ما في رنة.. ما في رنة. [ترمي الهاتف على الأرض. وتهمس] ماتت.. ماتت وما ودّعتني. [تنهض بصعوبة كأنها عجوز]

أنا اللي ما عندي وطن أرجع له ولا أم ولا طفولة ولا ضوء. أنا بنت النصف الناقص. يتيمة ببلاد العالم، منسية بعيون الناس.. بس سلوم كانت تحب سوريا.. وأنا كمان [تلتفت إلى الجمهور] هي الحقيقة بس الحقيقة قتلت سلمى وأنا منتظرة حقيقتي تقتلني.

[تتقدم خطوة. تُسدل الستارة ببطء بينما وجهها نصف مضاء، نصف مظلم].

الإسكندرية 2012

I AM FROM ISLAMIC STATE

صوت إطلاق ناريبدأ بعيداً ومتقطعاً ثم يقترب رويداً رويداً. يشتد إطلاق النار لفترة قصيرة، ثم يبدأ مرة أخرى بالابتعاد والتلاشي. عند بداية انكسار صوت إطلاق النار تبدأ صيحات التكبير من خلف الستارة أو من بين الجمهور كما يرى صانعو العرض.

يخرج شخص من الجانب الأيسر لمنصة العرض. حليق الذقن. يمشي ببطء إلى مقدمة المسرح، مع تلاشي صوت إطلاق الرصاص وصيحات التكبير. يرتدي تي شيرت أسود عليه دائرة بالأبيض داخله كتابة باللغة السريانية، وبنطال عادي وفقاً لما هو سائد. يقف على حافة المسرح متوجهاً للجمهور بهدوء: أنا من الدولة الإسلامية!
من آخر صالة المسرح يقف شخص يفترض أنه من الجمهور يصيح: الله أكبر! تكبير. فلا يرد عليه أحد! يصيح مرة ثانية الله أكبر.. فيرد عليه الممثل: أقول إجلس.. اجلس اتركنا نكمل. يبدو صدقت القصة. ترى هذي مسرحية.

أنا من الدولة الإسلامية وهذه هويتي. [يخرج الممثل هويته من إحدى جيوبه]. انظروا هذه صورتي وهذا اسمي أيضاً وهذا مكان الولادة: الرقة 16 تشرين الثاني 1970. أنا والحركة التصحيحية المباركة ولدنا في نفس اليوم المشؤوم. [يضعها في جيبه ويخرج من جيب آخر وثيقة سفر] بعضكم قد لا يقرأ العربية فهذه وثيقة سفري السويدية انظروا مكان الولادة Al-Raqqah!
الجميع يعرف الرقة الآن. كل العالم يعرف الرقة. إنها أشهر مدن العالم الآن! لو قلت لكم أنا من ديربان فلن يعرف أحد أين تقع هذه المدينة. أو إذا قلت لكم أنا من العاصمة أكرا؛ ولفظها بالمناسبة عكس الرقة، وعدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف، هل تعرفون أين تقع هذه العاصمة؟ أعتقد أني لو سألت سكان أمريكا وكندا والقارة الأوربية ربما سيعرف واحد من كل مليون في أي قارة تقع هذه المدينة دون الاستعانة بغوغل! وواحد من كل عشرة ملايين سيعرف أنها عاصمة دولة أفريقية، وليست نوعًا من أنواع البيتزا! أما الذين أصلهم من هناك، الذين أصلهم من هناك.. من تلك البلاد المجهولة هنا؛

سيعرفون أنها عاصمة غانا. أما إذا قلت لكم أنا من العاصمة أواغادوغو فستتخيلها صندويشة بيض بلحم السلاحف المدخن.

حسناً، كي نبقى في موضوعنا أنا من الرقة العاصمة الأولى للدولة الإسلامية، وسيكون طبيعياً أن أقول: أنا من الدولة الإسلامية. وأنا هنا لأقول لكم ذلك فقط. لا أريد تفجير نفسي، ولا قتلكم، ولا حتى احتجازكم كرهائن حتى نهاية العرض. فكما ترون لا أحمل أي سلاح؛ ومظهري طبيعي، وعلى الأقل لا أعاني من أي عيوب خلقية. [مستدركاً] هذا إذا لم نعتبر لون البشرة غير الأبيض عيب خلقي.

سأشرح لكم معاناتي هذه. ربما لا يمكن أن نطلق عليها معاناة، لكنها مسألة تستحق النظر وفقاً للتعابير الدبلوماسية. أعني تأملوا مصيري. تأملوا حكايتي البسيطة. لا يوجد شيء مثير في حكايتي التي سأحاول سردها لكم. هناك أشخاص آخرون لديهم قصصٌ مؤثرة أكثر منها بكثير، لكنهم للأسف لا يمتهنون الكتابة؛ إنهم يعيشون الحياة. لذلك لا ندري عن قصصهم شيئاً.

قبل أن نبدأ هذا العرض أود أن أوضح للجمهور الكريم؛ أن من ينتظر بطولاتٍ قمت بها، أو أحداثاً مشوقة متخيلة؛ كعرضي في سوق العبيد، وبيعي لزوجة الخليفة! لن يجد هذا. من ينتظر قصة بوليسية عن إنقاذي من سجون الخليفة عبر قوة خاصة لأعرض شهادتي على مجلس الأمن، حيث يُتاح لممثلي الدول عرض حزنهم للكاميرات، بينما تبكي رهيفات القلوب! ومن ينتظر أن أروي مغامرة لجوئي لسفارة الإكوادور في الدولة الإسلامية بسبب تهمة اغتصاب من صديقة قديمة أصبحت صديقة لأمن «الدولة».. لا.. لن يجد شيئاً من هذا. ومن تورط بدخول العرض متوقعاً وجود أشياء كهذه يمكنه الخروج واستعادة ثمن تذكرته. سأتحدث لكم عن حياة [شخص] عادي، شاء القدر وسلسلة مصادفات طويلة من ممارسة «الحب» بين البشر أن يولد هناك، على الأرض التي سميت في فترة تاريخية ما الدولة الإسلامية.

اكتشفت الأمر بالصدفة، هنا في أوروبا حيث أعيش. أعني اكتشافي أني من الدولة الإسلامية. قبل ذلك لم يخطر على بالي الأمر! أقصدُ لم أفكر فيه. لم يفكر فيه أحد قبلي أيضاً، الجميع ينسب نفسه للدول السابقة، التي ينتمي إليها قبل قيام الدولة الإسلامية.

كنت أرقص أنا وليزا، في بوب في إحدى قرى روتردام في هولندا. كان هناك شاب، ليس شاباً تماماً! فهو من عمري تقريباً يرقص بجوارنا، بدأ الحديث مع صديقتي بالهولندية. سألها صديقك من أين. أعني سألها بالهولندية بالطبع. قالت له إنه يتحدث الإنكليزية يمكنك أن تسأله. صديقتي هذه أيضاً لديها مشكلة هوية، أعني مثلي، على الأقل هذا ما تقوله، فأبوها يهودي أمريكي وأمها هولندية ولدت وعاشت معظم حياتها في إندونيسيا. لكنها لا تعيش معاناة بسبب ذلك، ولا تثير الاستغراب والضحك عندما تقوله للآخرين. ربما لأنهم في أندونيسيا يرفعون شعار [1][Bhinneka Tunggal Ika] وفي ألباما حيث ولد والدها يرفعون شعار [2][Audemus jura nostra defendere]. ليسَ[3].. المهم نرجع لحديثنا، اقترب مني الرجل الذي لم أسأله عن اسمه ونحن نرقص؛ سألني دون أن يبدأ حديثه بـ:

Excuse me

Where are you from?[4]

فكرت للحظة. ثم بسرعة حسمت أمري، فهذا السؤال فخ، سيفسد هذه اللحظة التي لم أعشها منذ قدومي لأوروبا لاجئاً، أعني أن أرقص وأنسى الدم، والمذابح اليومية، والاعتقال، والتجويع، والحصار، والتشريد الذي يعاني منه السوريون [والعراقيون

---

[1] شعار الدولة الأندونيسية ويعني« الوحدة في التنوع»

[2] شعار ولاية ألاباما الأمريكية ويعني «نجرؤ بالدفاع عن حقوقنا»

[3] ليسَ: تعبير يستخدمه أهل الرقة في الحديث، يعني لايهم ومترادفاتها.

[4] من أي بلدٍ أنت

واليمنيون والليبيون.. والفلسطينيون أيضاً قبلنا ومعنا]. قلت له بهدوء ونحن مانزال نرقص:

I am From Islamic State

عالج الرجل جملتي؛ فلم تصل مخيلته إلى مكان. ورغم أن ذكر أي شيء له علاقة بالإسلام في مكانٍ كهذا قد يثير الرعب، لكن الرجل لم تظهر عليه علامات الرعب أو الدهشة، ربما لأن صديقتي هولندية. عاد واقترب مني ونحن نرقص وأعاد السؤال:

From where?

صوت الموسيقى كان عالياً كما تعرفون. رفعت صوتي مقتربا من إذنه:

From Islamic State.. ISIS.. I'm from Al Raqqah the capital city of Islamic state...

حينها لم تكن العاصمة قد انتقلت للموصل. كانت الرقة عاصمة «الدولة» كما يختصرها مؤيدوها فرحين وكأن لا دولة في الكون غير هذه الدولة.

نظر الرجل بين الضحك والاستغراب إلى صديقتي. قالت؛ وهي ترقص أيضا؛ موجهة حديثها لي ضاحكة:

Fuck you.

إنه يمزح. قالت للشاب الهولندي، الذي انفجر بالضحك. ونحن نضحك، قلت له: لكني لا أمزح. حقاً أنا من الرقة، والرقة عاصمة الدولة الإسلامية. بقي الرجل يضحك ويردد فهمت فهمت. قال لصديقتي بعدها: صديقك هذا شخص ظريف جداً لا تتركيه. لكنها لم تستمع لنصيحته وتركتني لاحقاً بحجة عدم واقعيتي وسخريتي الدائمة من الرومانسية.

قبل هذا الاكتشاف الواقعي؛ كنت كل مرة أختار دولة، عندما يسألني أحد الأوربيين، من أين أنت. مرة إيطالي ومرة إسباني ومرة... [متوجهاً للجمهور] ألا تبدو ملامحي إسبانية! ربما كان أحد أجدادي من الأندلس عبر إحدى مصادفات ممارسة الحب. نعم إسباني...

إنه أمر مقنع ومدروس كي أتجنب فيض المشاعر، الذي سيتدفق باردا ولزجاً عندما أقول أنا من سوريا. وعادة يستكملون مشاعر التأسي هذه بالسؤال الفلسفي المعقد «ولكن ما الذي يحدث في سوريا.. نحن حقاً لا نعرف ماذا يحدث هناك... لماذا هذه الحرب...»

تخيل نفسك في مترو أو قطار، ورحلتك كلها لا تصل إلى ربع ساعة، وعليك أن تشرح ماذا يحدث بدقائق معدودة لأنك ستنزل في المحطة القادمة. أو أن السائل ذاته سينزل في المحطة القادمة، ويتركك معتذراً بينما أنت ماتزال تشرح ما الذي يحدث هناك بحماسٍ، كأنك على الهواء مباشرة على الـ سي إن إن ولديك دقيقة واحدة.

المصادفات لها تصاريفها وحكمتها في إنتاج الهوية واكتشافها أيضاً. الحياة سلسلة من المصادفات، الحياة العادية هي الخط الواصل بين مصادفتين، المصادفات هي التي تحدد المسار الرئيسي لحياتنا. هذا ما يقوله العلماء البريطانيون على الأقل [يضحك].

في مرة، قبل أن أتعرف على ليزا، كنت مع صديقتي السورية في القطار ذاهبين من أوتريخت إلى أمستردام. كنا نتحدث العربية بالطبع، والتي أصبحت معروفة في العالم ليس لأنها اللغة السادسة في الأمم المتحدة، ولا بسبب انتشار تعليمها في أصقاع الأرض كاللغة الإنكليزية مثلا، بل بسبب البث المستمر على كل قنوات العالم لتقارير حية من منطقتنا التي تتحدث العربية بشكل أساسي. أصبحنا جزءا أساسياً من البث المتدفق على شاشات العالم. في أحيانٍ كثيرة يستخدمون أخبارنا لملء الفراغ الذي يحدث بالضرورة نتيجة ساعات البث الطويلة، وقلة الأحداث في بقاع العالم الأخرى. أخبارنا تستطيع أن تملأ كل الفراغات. لدينا كل أنواع الأخبار. بث مباشر من ساحات القتال. مجازر. قصف مدارس أطفال. قصف مشافي. نزوح الآلاف. لاجئين. مقاتلين بلباس من العصور الوسطى كأنهم في مسلسل تلفزيوني تاريخي. تقارير عن اقتصاديات الجوع في ظل الحصار. منوعات ساخرة كأنها برنامج مستمر لـ طرائف من العالم العربي. هذه المنطقة المنكوبة من العالم. يمكنك أن تجد طرائف لا حصر لها من منطقتنا..

يقف شاب من وسط الجمهور غاضباً: يا أستاذ كنت تحكلينا قصتك أنت وصديقتك بالقطار في هولندا. رجعتنا للقصف والمجازر! هذي حافظينها بصم وملينا منها!

[يضحك الممثل ويتوجه بالحديث للشاب] هذي مسرحيتي أستاذ. أنا أقرر ما أحكيه. إذا لم يعجبك حكيي بإمكانك الخروج. الباب مفتوح. لم نغلق الأبواب ونحتجزكم كرهائن لتتابعوا المسرحية.

الشاب الذي مازال واقفاً يرد بعصبية: ما حزرت! ما تقدر تطلعني من المسرح. تظن نفسك بدول ربعك العرب. نحن بأوروبا. أنا دفعت ثمن تذكرة ومن حقي إكمال المسرحية. أطلع ما أطلع أنا حر...

تقف فتاة من الجمهور أيضاً، تتوجه للشاب بجدية وبصوت عالٍ: تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين. وتجلس.

يقول الممثل بصوت هادئ ومندهش: تكبيييير. يتابع حديثه للشاب [بمسالمة]: يا أخي إجلس. خلينا نكمل. لا تدخلنا بمتاهات الحقوق والحريات. هذي مسألة معقدة، لا أنا ولا أنت نعرف كيف تعمل في أوروبا. ممكن أوقف المسرحية وأشتكي عليك، وأدفعك تعويض كل التذاكر.. عطل وضرر أيضاً؛ لأنك لم تتركني أكمل مسرحيتي. يجلس الشاب. نرجع لقصتنا أنا وصديقتي، بناءاً على طلب الأستاذ الذي يظن أنه الوحيد الذي دفع ثمن التذكرة [مشيراً له بيده]. يمكن لو كنتُ وحدي لما انتبهتَ للقصة حضرتك. المهم؛ الرجل الذي يجلس بجانبنا، أنا وصديقتي، يبدو أنه متقاعد؛ وهؤلاء المتقاعدون هم الذين يفتحون الأحاديث عادة، فالجيل الشاب لا يأبه بك، ولا بالدول التي جئت منها، وربما لا يعرفها على الخريطة حتى! سألنا الرجل بأدبٍ واضح:

Excuse me, where are you from?

نظرت إلى صديقتي، متسائلاً أي دولة سنختار هذه المرة، فقالت هي: من إسبانيا. ولفظت إسبانيا كما نلفظها بالعربي. تهلل وجه الرجل، وبدأ حديثه معنا! حين شاهد البلاهة على وجوهنا، وبالتأكيد لاحظ أيضا أننا لم نرد عليه. لأن تعابير وجهه تقول إنه ينتظر رداً لسؤال وجهه باللغة التي لم نفهمها. قالت صديقتي باللغة الإنكليزية ضاحكة ومشيرة لي:

هو من إسبانيا. مخمنة بالطبع وفقاً لذكائها السوري المتدفق، أن اللغة التي تحدث بها هي الإسبانية. لكن الرجل الذي لم يضحك قال لها بهدوء:

And you..Where are you from?

قلت لها هامساً: من ماليشيا. قالت وهي تضحك: من ماليزيا. هكذا لفظتها ماليزيا! رد الرجل دون أن يضحك:

From where?

قلت له: «ماليشيا». هي من «ماليشيا». أنا من إسبانيا، لكني لا أتحدث الإسبانية للأسف، لأن أمي مغربية، وقد انفصلت عن أبي وأنا صغير، فعشت كل حياتي في المغرب، فلم أتعلم الإسبانبة، ولم أر أبي أبداً!

بدأ الرجل؛ الذي قال إنه من برشلونة يتأسى لمصيري، باللغة الانكليزية طبعاً. هكذا عدنا للمربع الأول فقد اخترنا إسبانيا للهروب من التعاطف مع مصيرنا الجماعي! ولقطع هذه المشاعر المتعاطفة مع مصيري الشخصي، قلت لصديقتي بصوت مسموع بالإنكليزية: أظن أننا يجب أن ننزل في المحطة القادمة. شكرنا الرجل وغادرنا مقاعدنا. قالت صديقتي وهي تضحك: تركت كل دول العالم وما اخترت إلا اسبانيا. خلص سنعتمد «ماليشيا» دائما. أجبتها. من المستحيل أن نصادف أحدا يتحدث اللغة «الماليشية». انظري إلى الزجاج الذي أمامنا، حتى اشكالنا تبدو حقاً من ماليشيا...

كان ذلك قبل اكتشاف هويتي في ذلك البار في القرية الهولندية النائية... نائية! نائية عن ماذا؟ لايوجد في أوروبا مدن أو قرى نائية، النائية اختصاصنا، اختصاص عالمنا المنكوب بالديكتاتوريات والسجون والفقر، لا... المنكوب بالديكتوريات التي جلبت لنا السجون والفقر واللجوء أيضاً. الدقة مطلوبة حتى لو كنت من قرية نائية.

عندما بدأتُ تعلم اللغة السويدية كانت الجملة الثانية التي تعلمناها، بعد [5][Vad heter du] والتي تعني ما هو اسمك، هي [6][Varifrån kommer du]. كانت دائما تنتابني رغبة أن

---

[5] ماهو اسمك

[6] من أي بلدٍ أنت

أكتب «جئت من قرية نائية» نعم قرية نائية. كان همنا الأساسي أن نستمر في الحياة. الحياة ليست مزحة. الإستمرار في الحياة عمل جدي وشاق. كنت أمشي إلى مدرستي الإبتدائية مسافة 7 كيلومترات تقريباً. ولدينا بالطبع شتاءات قاسية ودروب موحلة! كنا نكتب وظائفنا المدرسية في النهار على ضوء الشمس. فقط أولئك الأطفال الكسالى الذين ليس لديهم إحساس بالمسؤولية كانوا يهدرون الموارد ويكتبون وظائفهم في الليل على ضوء السراج. ننام بعد مغيب الشمس بقليل. ونتسلى في تلك الليالي الطويلة والباردة بالحكايا، لأنها لا تكلف شيئاً، إذ يمكن أن تحكي لنا جدتنا الخرافات بعد أن تطفئ السراج لتوفير الكاز والفتيلة. وحين ننام قبل أن تكتمل الحكاية نسألها في الصباح بتشوق عن بقيتها، فتقول لنا: «الـ يخورف[7] بالنهار يصير حمار». ولم يكن لدى أحدنا الشجاعة بالطبع ليخوض التجربة ويتحول إلى حمار. مع أننا كنا نتعامل مع الحمير [والكلاب أيضاً وكل الحيوانات الأليفة] كأنها من أفراد العائلة. ذلك قبل أن نأتي إلى أوروبا وندخل «دورات الاندماج» التي يعلموننا فيها كيفية التعامل مع الحيوانات الأليفة! بل لم نكن نعرف أن هناك شيئا يدعى أوروبا. كان للحمار دوراً محورياً في حياة العائلة في ذلك الوقت، يتجاوز أحياناً ويفوق أهمية دور رب العائلة. كان الحمار محور النشاط الإقتصادي ووسيلة النقل والمواصلات الداخلية بينما كان الحصان مخصصا للتواصل الدولي مع القرى المجاورة.

إحدى المهام الشاقة التي كانت موكلة للحمير ولنا نحن الصغار، هي تأمين مياه الشرب. كانت مهمة جلب الماء من النهر من اختصاصنا. رغم أن مهمة إنقاذ العائلة من العطش هي أمر جسيم وأهم من أن يوكل لأطفال تبدأ أعمارهم بالسادسة، وتنتهي مهمتهم عندما يبلغون الرابعة عشرة، فينتقلون إلى عالم الرجال أو النساء ويقومون بالأعمال الخالية من الفكاهة والمرح.

---

[7] الفعل من خرافة. أي يروي الخرافات والأساطير.

كنا نحول هذه المهمة القاسية لرحلات مرح، ووسيلة ترفيه في قرية نائية تفتقد حتى المراجيح! كنا نتسابق على الحمير نحو النهر، ولا يخلو الأمر من بعض المطبات والإصابات بالجروح، والكسور في بعض الأحيان؛ كأن تقع من فوق الحمار وتقع عليك «القواديس»... القواديس! كيف سأشرحها لكم هذه! بحثت عنها في لسان العرب فلم أجد لها جذراً! هذا يعني أنها ليست مفردة أصلية باللغة العربية، ولا أدري ماذا يقابلها باللغات الأخرى. بحثت أيضاً عن صورة لها عبر غوغل فلم أجد. تخيلوا كنا نستخدم شيئاً غوغل نفسه لا يعرف عنه شيئاً. يالحياتنا الموغلة في القدم. يالحياتنا التي لم يؤرخها أحد ولم يؤرشفها العم غوغل.

على أية حال، القواديس جمع قادوس وهي إناء معدني دائري توضع كل واحدة منها في جهة، فوق البردعة التي على ظهر الحمار وتربط إلى بعضها بزردٍ حديدي. أنا لا أجيد الوصف، وهذا هو السبب في أني لم أكتب رواية. لذلك أرسلت لصديقي رافد الإيميل التالي:

رافد هل لك أن ترسم لي قواديس... كوسيلة إيضاح للأخوة الأوربيين.

[يعود لآخر المسرح حيث رمى حقيبة تبدو حقيبة «مثقف»، يخرج منها بعض الأوراق ويعود لمواجهة الجمهور. أو يلتقط جهاز تحكم ليشعل جهاز لعرض الصور] بعد يومٍ واحد أرسل لي رافد عبر الايميل هذه الصور مرفقة بعبارة واحدة [حسناً يا دو سانت-أكزوبيري]. لم يحتج رافد أي شرح ليرسم لي هذه الرسوم التوضيحية. مع أنه يدرّس البورتريه في أكاديمية الفنون الجميله الفرنسيه [Académie des Beaux-Arts]، لكن هذا ليس سبب رسم القواديس دون شرح؛ بل لأنه أيضاً من إحدى القرى النائية في الرقة، عاصمة الدولة الإسلامية.

[يعرض الممثل الرسوم بالتسلسل] انظروا؛ هذي هي القواديس وهي على الأرض. لها فتحة من الأعلى حيث نضع فيها محقن لسهولة التعبئة. وهذي القواديس وهي على ظهر الحمار، وهذي القواديس والطفل يملؤها من النهر. كما تلاحظون حجمها يعادل ربع

برميل تقريباً... كلكم تعرفون البراميل. البراميل أصبحت مشهورة في العالم. إنها أرخص وسيلة يستخدمها ديكتاتور لقتل شعبه. كما أنها وحدة قياس النفط الذي تعبده حكومات الدول الصناعية القوية وتفتش كتبنا ودفاترنا وبيوتنا وأراضينا وأفكارنا وأحلامنا وألبستنا الداخلية أيضا بحثاً عنه. حتى في قريتي النائية شاهدنا معدات استكشاف النفط. كنا نلحق بها نحن الأطفال، ونتحدث مع العمال والسائقين باللغة العربية، بينما يردون علينا بلغة أخرى لانعرف ما هي. كنا نشاهدهم يأكلون أشياء غريبة. مرة أعطونا شيئاً لونه أصفر، يشبه.. «شو إسمو»[8].. زب جحش صغير...

يقوم الشاب نفسه من نفس المكان: أستاذ.. يستدير الممثل نحو مصدر الصوت. يكمل الشاب: من هذا أكزوبيري؟

تقف الفتاة نفسها متوجهة للشاب: إنت فعلاً أمرك غريب. ما خطر لك تقاطعه إلا عند هذي الفقرة! هذا كاتب فرنسي. تلتفت للمثل كمل أستاذ... كنت تحكي عن الـ.. «شو إسمو...»

عن What!.. [يصمت الممثل ويتذكر]. Oh..Yah [بأسى] طلع موز والله يا آنسة. كنت الوحيد الذي قذفته من فمي بعد محاولتي أكله. حين روى الأطفال لأمي ذلك وبختني كالعادة، وقالت لي: «تالله عليك إثيمك مو إثيم موز»[9]. فعرفنا أن هذا الـ «شو إسمو» هو موز. وحتى الآن، عندما أقرأ أو أسمع تعبير «شو إسمو» أتخيل الموز. بينما جميعكم تتخيلون شيئا آخر.

[يصمت الممثل، يتحرك على الخشبة وعيناه مركّزتان على الأرض. يقف فجأة في مواجهة الجمهور ويسأل نفسه] عن ماذا كنت أحكي! [يتحرك] نسيت... عقلي ليس دفتر. المهم؛ مرة كنا أنا وصديقتي ليزا الهولندية الحلوة في أمستردام، وعادة عندما تكون ليزا معي أتشجع لأعلن هويتي، فهي ستضمن عدم الاعتقال من الشرطة وستوضح لهم أني أمزح.

---

[8] تعبير إيحائي يستخدم كثيراً للإشارة إلى الأعضاء الجنسية أو فعل ممارسة الجنس. بينما يستخدم أصلاً بتنويعات مختلفة في اللهجات العربية للإشارة لشيء لم تتذكر اسمه.

[9] تالله عليك: اختصار بلهجة أهل الرقة لـ لعنة الله عليك. إثيمك: تصغير لـ فمك.

فالشرطة سيصدقونها في النهاية لأنها أوربية. بينما إذا كنت بمفردي قد يودي بي إعلان هويتي لمحاكم خاصة بمكافحة الإرهاب في أوروبا.
بعض الأوروبيين سيعتقدون أن ما أقوله مجرد هلوسات لاجئ؛ فكما درسوا في مدارسهم؛ الحقائق حقائق سواء كان مصدرها العلماء البريطانيون، أو طفل تائه على تخوم الصحراء.. لكن هذا غير صحيح، فاللاجئ كاذب حتى يثبت العكس، وأحيانا حتى لو ثبت العكس، بينما الأوروبيون صادقون ولايحتاجون إثبات. وإذا كان هناك قضية أحد أطرافها أوروبي بيمنا الآخر لاجئ؛ فأهمية ما يقوله اللاجئ في تعديل ميزان القضية لصالحه تشبه أهمية أقوال معتقل في دولة ديكتاتورية مقارنة بأقوال عميد في المخابرات العسكرية تحديداً. بالطبع اللاجئ يكذب، يكذب في قصة لجوئه إذا اضطر لذلك، بل يكذب أحياناً دون حاجة للكذب. جارنا؛ الذي كان معلمي في صنع القهوة العربية، حيث أعمل مساعداً له خصوصاً في المناسبات، وتنحصر مهمتي في مناولته الأغراض وتنظيفها وجلب الماء، بينما يتحاور معي أثناء تحميصه البن على النار بجدية لا يفعلها الكبار عادة مع الأطفال، ردد على مسامعي كثيراً «يا ابن أخوي واحد كذب كذبة.. نحبسه!» وكنت صغيراً وأعرف الكذب وأمارسه أيضاً، فأجيبه متأكداً أنه يطلب هذه الإجابة: «لا ما نحبسه». فيعيد التأكيد عليّ: «لا بالله لا يكون نحبسه؟» فأرد بحزم وقد ازدادت ثقتي بحكمتي وسعة معارفي: «لا ما نحسبه ليش نحبسه!» يتوقف عن تحريك البن متوجهاً لي: «لا بالله تعال نحبسه». فأرد واثقاً: «ما نحبسه.. كذب يعني خربت الدنيا!». لدينا مثل يعزز هذا التوجه، أعني التعامل مع الكذب كأمر يحدث بشكلٍ طبيعي في الحياة؛ فكلنا رددنا هذا المثل «الكذب ملح الرجال...» رغم أن النساء يكذبن أكثر من الرجال! حسب رواية يشيعها الرجال سراً بينهم. لكن الأوروبيين يكذبون أيضاً، حكوماتهم كذلك تكذب. مصائب الشرق هي نتاج كذب الغرب. منذ عصر الأنوار والغرب يكذب علينا. اقرأوا مراسلات الحسين-ماكماهون لتروا الكذب على أصوله، معاهدة السيدين سايكس وبيكو، اللذين نظنهم شخصاً واحداً اسمه «سايكس بيكو»، تلك المعاهدة التي قسمتنا على الخريطة وأنتجت لنا دولاً كاذبة. اقرأوا أكاذيب السياسيين الغربيين عن حقوق

الإنسان والديموقراطية، بينما يدعمون في مناطقنا الديكتاتوريات تحت بند «الاستقرار المستدام». وجودنا هنا كلاجئين هو نتاج كذب الساسة في الغرب. الدولة الإسلامية نفسها تعود جذورها الأساسية لكذب الغرب. أعني الساسة طبعاً. لكن البشر جميعهم يكذبون سواء كانوا بيضاً أو سوداً أو ملونين. أعني أننا نكذب أيضاً، لكن أحداً لا يصدقنا، بينما كنا ساذجين ونصدق أكاذيب الآخرين. وسأروي لكم حادثة فردية بسيطة لا يمكن أن نستنتج منها شيئاً، حصلت معي في القرن الواحد والعشرين في خريف عام 2016 في مدينة موتالا السويدية. يجلس على كرسي أقرب للجهة اليسار من المسرح. [محدثاً نفسه باستغراب] كنا أنا وليزا في أمستردام... مالذي أخذنا إلى موتالا! ليسَ...

في ساحة المدينة تقف سيارة متنقلة في بعض أيام الأسبوع تعمل كمطعم للفلافل وأشياء أخرى كثيرة، منها الكباب الذي هو طعام أهل الجنة كما قال جدي. في ذلك اليوم كانت الشمس مشرقة، والهواء عليل، والهدوء مطلق، حيث تلتزم العصافير بالقوانين هنا ولا تغرد في كل وقت. قررنا أنا وصديقي أن اللوحة تحتاج فلافل من أيدي مرافق «الرئيس عرفات» لتكتمل. مشينا نحو عربة سالم، الذي يزعم، ولا أظنه يكذب، أنه كان مرافقاً شخصياً لأبي عمار، والوحيد الذي كان مصرحاً له بدخول مكتبه عندما كان محاصراً في المقاطعة، والوحيد من مرافقيه الذي كان يدخل إلى «الرئيس عرفات» [كما يسميه] في غرفة المشفى في باريس. حين سأله صديقي مرة لماذا تركت وظيفتك أليست أفضل من أن تصبح لاجئاً! نظر بضغينة واستغباء لصديقي قائلاً: «ول.. تريدني أوقف ورا أبو مازن!». وجدنا العربة والشيف سالم بداخلها، قال له صديقي الذي تحدث كأنه على منبرٍ يقرأ الشعر: سالم.. اليوم يوم الفلافل، في هذا الجو الصافي والبديع، الفلافل أجنحتنا لنطير إلى الوطن، نريد أن نأكل فلافل حتى نصاب بالتخمة.. الفلافل...

نظر سالم مندهشا إلى صديقي، وقال له بلهجته الفلسطينية: «اسمع.. الفلافل أول إشي ما بتعملش تخمة وثاني إشي كل اللي بقيان عندي ست قراص فلافل أعملهم سندويشتين إلكم.. وفي حبتين بندورة وبطاطا مقلية. اليوم كان الشغل ممتاز وخلص

الأكل بكير». بينما تناولت سندويشتي أولا وبدأت بأكلها كأنها عدوي اللدود أو كأن أباها قتل أبي قبل أن تبدأ الحرب..

وقف أمام شباك «العربة-المطعم» رجل أوروبي ضخم الهيئة. أعتقد أنه في نهايات الأربعينيات. معه فتاة آسيوية ناعمة وصغيرة، على الارجح من تايلاند، ولأن الأسيويين من الصعب توقع أعمارهم من سحناتهم، توقعت أنها أقل من الثلاثين. بينما كان مرافق الرئيس عرفات يلف سندويشة صديقي؛ لفت انتباهي أنهما يشكلان رقم عشرة وهم يقفان متجاورين. كانا ينظران الى قائمة الطعام ويتشاوران باللغة السويدية ماذا سيطلبان. معرفتي بالسويدية في ذلك الوقت مثل معرفتكم باللغة اللاتينية، لكني قلت للرجل بعد أن ابتلعت عضة كبيرة من سندويشتي، بالانكليزية طبعًا: لا يوجد أي طعام. لا تضيّعا وقتكما بالانتظار. نظر الرجل إلي ببرودٍ محايد ولم يجب بأي كلمة. بعد أن أنهى مرافق الرئيس عرفات سندويشة صديقي وجاء دور الرجل، وقبل أن يطلب شيئاً قال له بالسويدية: للأسف لم يعد هناك أي طعام... نظر الرجل إلي قائلا: يو ها لقد أخبرتني الحقيقة إذاً. قلت له: هل أنت سويدي؟ فأجاب: نعم. قلت له: بالطبع أخبرتك الحقيقة، لكنك لم تصدقني لأني مجرد لاجئ وأنت سويدي. لم أضحك. ولم أكن أمزح بالطبع. الرجل، الذي ارتبك واعتذر، أكد أنه كان يعتقد أني كنت أمزح. قلت له بنفس البرود السابق: دائما تجدون تبريراً لعدم تصديق اللاجئين.

ما السبب الذي دعاني لرواية هذه الحكاية! مالذي كنتُ أريد إثباته.. آآآه تذكرت. كنت أتحدث عن اكتشاف هويتي والمشاكل التي قد يخلقها لي إعلانها بغياب ليزا. [مخاطباً نفسه] كن منصفاً يا أخي، عليك أن تأخذ بعين الإعتبار الخطر الذي أصبحت تشكله «الذئاب المنفردة». [ينظر إلى جهة في المنصة عليها طاقية غيفارا] لنكن صريحين أغلب الذئاب المنفردة قادمة من الشرق الأوسط وتشبهني. نعم تشبهني. [ينظر إلى وجهه من خلال مرآة صغيرة] والله شكلك إرهابي. مالذي يضمن لهم أنك لن تتحول لذئب فجأة! من الطبيعي أن إعلان هويتك محفوف بالخطر في هذه البلاد التي تحارب الإرهاب، وتنظر إلى القادمين من هذه المنطقة المنكوبة من العالم كإرهابيين محتملين. وكما يقول

المثل الروسي «لا تتبرم من الثلج المتكدس على باب جارك قبل أن تجرف الثلج المتراكم على باب بيتك».

ليزا كان معها حق حينما غضبت في ذلك اليوم، بعد أن جلسنا في مقهى قريب من المحطة المركزية في أمستردام نشرب قهوة... لأ، كنا نحتسي القهوة [يامثقف!] ونتجاذب أطراف الحديث حول أمور تعيق حياتنا المشتركة ونريد أن نجد لها حلاً. فقد كان لديها قطتان وأربع دجاجات تعيش في حديقة منزلها، وعلينا إيجاد حل لرعايتها قبل أن نسافر معاً إلى السويد. وبينما استعرضنا كل الخيارات المطروحة أمامنا، بما فيها اقتراحي شوي الدجاجات، وطبخ حلة من الأرز بجانبها، ودعوة أصدقاء لاجئين عانى بعضهم من الحصار والجوع.. قاطعتني بنظرة عدوانية قائلة: ولماذا تستغرب إذاً عندما ينظر لك البعض كإرهابي محتمل! في النهاية استقر رأيها على أن تتصل بصديق أخيها البولندي ديفيد ليمر كل يوم يتفقد الدجاجات والقطط ويطعمها، مقابل أجرة يومية بسيطة. أيدت هذا الحل، وقلت لها لو كنتِ في بلادنا لَما دفعتِ شيئاً مقابل ذلك. الجيران سيقومون به طوعيًا وسيكون معيباً أن يأخذوا المال مقابل هذا. ليزا التي لم تستغرب الأمر، لأن لديها معرفة معقولة بثقافة المنطقة أكثر من خبراء الشرق الأوسط، قالت بنصف ابتسامة: Oh really! قلت لها متباهياً: طبعا هناك فوائد كثيرة يمكن أن يحصل عليها المرء عندما يكون من عاصمة الخلافة!

كان هناك فتاتان آسيويتان تجلسان على الطاولة التي بجانبنا. لا يبدو أنهن سائحات بل على الأرجح يدرسن في أمستردام. الفتاة التي بجانبي سألتني بصوت هادئ وناعم كأنه هواء يتسرب من كيس قماش قطني:

Excuse me, where are you from?

توثبت ليزا. فقد أصبحت تخمن ردي والمهمة التي تواجهها بعد أن أجيب على هذا السؤال. دون أي ابتسامة يلصقها السويديون على وجوههم عندما يتحدثون للغرباء لأول مرة، التفت ببطءٍ نحو الفتاة وقلت لها باعتيادية:

I am From Islamic State.

نظرت الفتاة بهلع إلى صديقتها التي تجلس قبالتها. والتي انتقل إليها شعور الهلع كتيارٍ كهربائي فتوجهت نحوي بالسؤال: Where? . قلت لها بتنغيم وبتقطيع للكلمات كي لا يكون هناك أي احتمال لسوء الفهم:

I .. Am.. From.. Islamic.. State.

صمتُ برهة. ولكي أضمن وصول الرسالة بكامل حذافيرها ولا أدع أي مجال لاختلاط الشك أضفت:

ISIS.. Do you know ISIS?

الفتاة التي بجانبي التقطت هاتفها الذي على الطاولة بيدٍ مرتعشة. بينما تلفتت الفتاة التي قبالتها بخوف بدأ يتصاعد، ومن الواضح أنها لم تعد تقوى على الوقوف. ليزا التي كانت ترقب الموقف وشاهدت ما حل بالفتاتين. قالت بصوت واضح وهي تنقل عينيها بين الفتاتين:

Fuck you.. What do you do.. He is just joking. He is from Sweden. Don't worry sweetie..

أمام الهلع الذي أصاب الفتاتين، اضطررت للضحك دون رغبة، وقلت لهما:

Yah.. I'm from Sweden, but originally from Al Raqqah.

أمام ما حدث؛ قررت ليزا أن نخرج من المقهى. عندما أصبحنا خارجاً قالت لي غاضبة: اسمع.. لايمكنك أن تستخدم هذ النوع من المزاح بشكل دائم مع الناس. هل رأيت ما حدث للفتاتين؟!

قلت لها بغضب: ليزا أنا لا أمزح. أنا من الرقة عاصمة الدولة الإسلامية الآن. إنها دولة الآن. مثل كل الدول التي مرت منطقتنا. كنا جزءاً من الإمبراطورية الآشورية والبيزنطية

والإسلامية والعثمانية والفرنسية و.. الأسدية أيضاً. نحن مسالمون، لانهتم بمن يحكم، نهتم بزراعتنا وأغنامنا و... «نرحب بالمجبل ونعفّط للمجفي»[10]. الدولة الإسلامية «قائمة وتتمدد» الآن، حين تندثر سنسخر منها، كما سخرنا من «الدولة الأسدية» عندما اندثرت. إنها تحكمنا الآن، إعترافك بها مسألة أخرى. تايوان لا يعترف بها أحد لكنها حقيقة قائمة! عندما أعلن البغدادي «دولة الخلافة» كانت مساحتها تعادل عشرة أضعاف مساحة هولندا. وعدد سكانها أكثر من عشرة ملايين نسمة! دولة لديها جيش وشرطة وعلم وبنك... حتى عملة! بل إنها الدولة الوحيدة التي أعادت العملة الذهبية للتداول! لديها اقتصاد ووزير مالية وتبيع النفط...

آآه نسيت. كنت أتحدث عن التنقيب عن النفط في قريتنا. عندما جاءت شركات التنقيب عن النفط إلى قريتنا النائية في تلك الحقبة من الزمن البعيد. كانوا يتحدثون لغة غريبة، وعندما كبرنا عرفنا أنها الروسية، كانت العلاقات بين قريتنا النائية وبين الاتحاد السوفييتي الصديق متينة في تلك الفترة. والصديق كنا نحسبها جزءاً من اسم الاتحاد السوفيتي، فقد كانت موجودة كإضافة لاصقة بالإسم أينما مرّ.. في الأخبار، في الكتب، في الجرائد، في الخطابات البعثية الحماسية وفي خطابات رئيس الجمعية الفلاحية الذي لا يدري أين يقع هذا الاتحاد السوفيتي الصديق.

كنا نقضي نهاراتنا الفارغة من كل شيء بملاحقتهم، والتطوع معهم في بعض الأعمال البسيطة، حيث كانوا يضعون علامات على الأرض، ثم بعدها بأيام تأتي معدات ثقيلة ترج الأرض، وتثير الضجيج في منطقتنا الساكنة كأبدٍ فارغ نسيه عابرون. كان ذلك هدية من السماء، أن يأتي غرباء إلى قريتنا. نحن نحب الغرباء. الغرباء يمنحون حياتنا قصصاً غير متوقعة وجديدة. الغرباء لديهم أشياء مختلفة لا نعرفها. نكتسب منهم قصصاً نرويها

[10] مثل يردده أهل الرقة ويعني نرحب بالقادم ونسخر من الغابر

في ليالينا الطويلة والمملة، ونتعلم منهم أشياء كثيرة لم تخطر على بالنا. أنا عرفت الـ«شو إسمو».. الموز من الأصدقاء السوفييت!

حياتنا مشروع إغتراب وعودة. ما من أحد لم يعد للديار حتى لو جثة. وما من أحد من أهلنا إلا واغترب، لذلك يعرفون معنى أن تكون غريباً. كانوا يدللون الغريب، ضيفاً أو مقيماً، ويحتفون به. حين يستوطن غريب منطقتنا كانوا يملّكونه أرضاً يزرعها، ويساعدونه في عمارة بيته البسيط ويجمعون له الأثاث أيضاً. حتى ونحن أطفال إذا تعاركنا مع أطفال الغرباء الذين يسكنون قريتنا أو يعبرونها، كنا نعاقب بشدة. كانت أمي تقول: «تريدون تسودون وجوهنا.. مايكفي إنهم غُرب.. متغربين عن أهلهم وديارهم!».
مرة كنت في ألمانيا عند يعقوب.. يعقوب صديقي من أيام الإعدادية، وكان أهله شركاؤنا في الزراعة. بعد أن اكتشفت ذات مرة من كتابٍ مترجم عن الإنكليزية أن الأرمن لجأوا الى ديارنا بعد مذبحة كبرى تعرضوا لها، أصبحت أعيره ساخراً «أقول.. ياطيب.. ترى انتم لاجئين عندنا». فيرد ضاحكاً «بـ صلاة محمد! والله ما أدري»[11]. لم يكن في ثقافتنا مفهوم «لاجئ» كنا نستخدم بدلا عنها «الغريب» الذي يساوي بين شخصٍ قادم من أرمينيا وآخر قادم من قرية مجاورة. في ألمانيا، حينما قلت: «أقول.. يا طيب ترى انتم...» قاطعني ضاحكاً «أقول.. اسكت اسكت.. ترى صرنا كلنا لاجئين بالصحيح هذي المرة». تعرف يعقوب.. [يتلفت الممثل حوله متسائلا: أين يعقوب! ينظر إلى زاوية ما في فضاء المسرح كأنه وجده] أحس أن السويد أعادتني لطفولتي، الذاكرة الصلبة التي كان مشروع حياتي هو الهروب منها. شفت زب الوهدانية...! ضحك وقتها قائلاً: «تقصد تل الوهدانية». لا.. كان اسمه «زب الوهدانية» قبل أن يدخل الإسلام إلى قريتنا النائية. كان الجميع يتداول اسمه ببساطة. نساء، رجال، أطفال.. دون أن يثير ذلك انتباه أحد. تقول أسطورة التسمية أن امرأة من قبيلة وهدان مرت بجانب هذا التل، وحينما رأته قالت: «علواه يكون عندي زب بقد ها التل». ومنها سمي التل «زب الوهدانية». عندما جاء الإسلام إلى

---

[11] بـ صلاة محمد هو أحد تعابير القسم في وادي الفرات، ويستخدم أيضاً كتعبير توكيدي من المتحدث أو السائل أو المندهش...

قريتنا النائية في منتصف الثمانينات من القرن المنصرم صار اسمه «تل الوهدانية». وصاروا يختصرونه لاحقاً إلى «الوهدانية»، دون أن يضاف إلى تل أو «شو إسمو»..

كنت صغيراً وكنت أصعد هذا التل الذي كان عالياً... عالياً. مرات كنت أصعده في الليالي وحيداً. كان الليل واسعاً يغطي مساحاتٍ على مد البصر. لم يكن هناك شيئ سوى الليل. كان الليل بطيئاً.. بطيئا جداً. لا يوجد أي إشارة على أن هناك حياة تحت هذا الليل. لكن التل، لعلوه في مناطق منبسطة، يكشف مناطق واسعة تمتد لأكثر من ثلاثين كيلومتر في بعض الجهات. إنها إحدى المتع المتاحة في قرية نائية. أن أصعد التل وأجلس لساعات طويلة أتأمل الزمن كيف يمر. كل ما حولي ظلام. وفي مرات يكون القمر بدراً فتكون الرؤية أكثر اتساعاً. وكلما اتسعت الرؤيا تضيق العبارة كما يقول النفرّي صديق الشعراء.
تخيل هذا يا يعقوب. تخيل كيف مرت حياتنا بهذا البطء. بعد مغيب الشمس بقليل، يرحل كل شيء، لا ضوء ولا صوت. أحياناً ليلة كاملة لا يخدش ظلامها ضوء. وأحياناً قليلة يظهر في البعد ضوء لسيارات بعيدة يختفي بعد قليل. لا نعرف من أين أتى ولا نعرف أين ذهب الضوء. كنا صغاراً ولدينا مخيلة نظيفة، نرسم حول هذا الضوء القصص المليئة بالخوف. تخيل يا يعقوب كيف مرت حياتنا.

لا أدري إن كنت استخدمت هذه التعابير حينها؛ لكن يعقوب، الذي هو أيضا أحد سكان الدولة الإسلامية، سحره توصيفي لرتابة حياتنا. صفّر بفمه وقال يا ألله. ماداً كلمة الله رغم أنه ملحد، لكن الله جزء من ثقافتنا. [يصفر الممثل مقلداً يعقوب قائلا يا ألله. يعيدها مرة ثانية ويتوقف قبل إكمالها يلتفت للجمهور قائلاً: مانجحت. المرة القادمة سأدعوه لحضور العرض وعندما نصل هذه الفقرة سيصفر هو ويقول يا ألله] نعم، الله في منطقتنا كان لفظاً أليفاً قبل دخول الوهابية. نستخدمه للتعجب والتحبب والقسم و... أذكر أني نصحته حينها بقراءة رواية صحراء التتار لدينو بوتزاتي وقلت له أن هذه الرواية تحكي رتابة الزمن في حصن على تخوم الصحراء بانتظار الأعداء الذين لم يأتوا.

ليسَ.. هذا ليس حديثنا على أية حال. فقد أصبح العالم كله صغارا وكبارا يعرف هذه البقعة التي كانت منسية، وهادئة والزمن يمر بها كأنه كسيح. أين وصلنا!

[يقوم الشاب نفسه.. كنت تحكي عن الإسلام والوهابية. لكن يا أستاذ ترى زودتها.. الإسلام.. يقاطعه الممثل منفعلاً].. Shut up إجلس. هذا ليس شأنك أنا أتحدث عن إسلامنا وليس إسلامك. [ممسرحاً الأمر بطريقة مبالغ فيها] نحن في أوروبا. حيث عصر الأنوار.. أتفهم! حرية الرأي والتعبير.. [يتراخى الممثل ويتمايل راقصاً على المنصة] والحب.. والغرام.. والـ.. [يقف معتدلاً ويعود لغضبه دون أن ينظر للشاب] إن لم يعجبك هذا إذهب إلى الدولة الإسلامية وتقلد منصب أمير العسس.. العسس...! [يصمت برهة] العسس فعلاً معبرة أكثر من «المخابرات»، «المباحث»، «الأمن». العسس فيها مدلول احتقاري للمهمة، لذلك أبدلتها الأنظمة الديكتاتورية الحديثة. حتى الدولة الإسلامية، التي أجبرتنا على العودة للعيش في بداية القرن السابع للميلاد لم تستخدم هذه المفردة. رغم أنها محتقرة دون أن تستخدم هذه المفردة، ومجرد ذكرها يثير الذعر في العالم. ليسَ.. نرجع لحديثنا.

مرة كنا في الباخرة قادمين من هلسنكي إلى ستوكهولم، نظر فرزند إلى مجموعة من الفتيات الجميلات اللواتي يبدو أنهن في مجموعة سياحية، وقال: بعربية واضحة رغم أنه كردي: «ولو ألله.. حلوات الصينيات». قلت له هؤلاء ليسوا صينيات. أعتقد أنهن من ماليشيا وضحكت. أصر أنهن صينيات. قلت له أنا أعرف الآسيويين وأستطيع التفريق بين جنسياتهم، فقد عشت في الخليج حيث تتواجد كل جنسيات آسيا. لسنَ صينيات. قال ربما. قلت له وأنا أضحك: ليس ربما، بل مؤكد أنهنّ من ماليشيا. ماليشيا بلدي. وأميزهم عن بقية الشعوب الآسيوية. أمام إصرار فرزند ومساندة بقية الأصدقاء له، أنهن صينيات. قلت: لنر. تقدمت من أجملهن وقلت لها بلطف سويدي:

Excuse me, where are you from?

From China..

انفجرنا بالضحك جميعا أنا وفرزند وبقية الاصدقاء. قلت له: شفت! قلت لك أنهن من الصين ولم تصدق. أمام ضحكنا غير المتوقع سألتني الفتاة:

And you.. where are you from?

سحبني فرزند الذي يعلم باكتشافي لهويتي الجديدة. وهددني قائلا: «لا تتمنيك! إذا تجيب سيرة دولتك الخرية سترعب الركاب المحتشدين للنزول. رجاءً بلاها...» التفت لها بينما كنت أضحك وفرزند يسحبني من يدي:

They are from Syria. For me Syria is my former country.

بقي وجه الفتاة خليطاً من ابتسامة واستغراب وعدم فهم. وأنا أبتعد سألت:

And now?

أجابها فرزند بعجلة وهو يسحبني إلى ممر النزول من الباخرة:

Now.. He is from Sweden.

Yah.. From Sweden. När jag var lite [ينظر الممثل إلى الأرض كأنه يتابع نملة تتحرك] barn dog min mormor.. Nej, min farmor[12]. عندما توفيت حبابتي.. ونحن نستخدم «حبابتي» بدلاً عن جدتي ومترادفاتها. كما ترون حتى لغتنا مشحونة بالحب. حبابتي للغائب. وأحيانا حبابة، أو الحبابة، وحباب للمنادى. صحيح أننا قرية نائية، ليس فقط لمركز العالم الأوروبي، بل حتى أهالي بقية سوريا ينظرون لنا كمجهول قادم من بعيدٍ لا يعرفونه ولا يريدون ذلك. لكنا نعرف الحب. لغتنا فيها تعابير مدهشة للحب. لو استطعنا فقط أن ننقل «الموليا» للعالم لأبكيناه بعذابات العشاق الذين كتبوها وغنوها.

كنت صغيراً عندما ماتت حبابة. أعتقد أن عمري كان أقل من أربع سنوات. كان من التقاليد في ذلك الوقت أن تُقرأ ختمة من المصحف عند رأس الميت قبل دفنه. معتقدين ببساطة أن ذلك سيقي الميت عذاب القبر. لم يكن في قريتنا أو في القرى المحيطة كلها

---

12 عندما كنت طفلا صغيراً.. جدتي [أم أمي توفيت] لا، جدتي [أم أبي]

مصحف. ركب أخي فرساً إلى القرية المجاورة حيث يوجد فيها «بيك آب» يعمل كسيارة أجرة لنقل الناس والأغنام واللبن والجبن في الصباح إلى المدينة ويعود ظهراً. كان هناك بضعة باصات تقوم برحلة واحدة صباحًا إلى الرقة وتعود ظهراً إلى منطقة في آخر حدود المحافظة وتنقل كل سكان القرى في طريقها ذهابا وإياباً. بعدها يصبح التنقل صعباً.
ليسَ.. ماتت حبابتي بعد العشاء، ذهب أخي إلى جامع الشراكسة بالرقة، لإحضار مصاحف لقراءة ختمة من المصحف على رأس حبابتي التي أصبح اسمها فوراً «المرحومة». عاد أخي وقال إنهم لم يجدوا سوى مصحفين. عبدالله الساري، الوحيد الذي كان يصلي في كل قرانا بشكل منتظم، لكنه مثل الغالبية لايصوم، ويقرأ القرآن بتجويد صحيح، قام بشق مصحف إلى قسمين، ومصحف آخر إلى ثلاثة أقسام، ووزعها على من يعرف القراءة وجلسوا يقرأون عند رأس حبابتي. خمسة أشخاص يقرأون بصوتٍ عالٍ سورًا مختلفة من القرآن، إثنان منهم يقرآن بتجويد عذب، أحدهما يغني «المولِيا» ويكتبها. اختلاط الأصوات سكن ذاكرتي ومخيلتي للأبد. أذكر حتى الآن عبدالله الساري وهو يقرأ ويعيد بصوته العذب «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ...»

المهم يا طويلين العمر، لما رجعت للرقة بعد غياب عقدٍ تقريباً، إثر اندثار «الدولة الأسدية»، وبعد أن عَفطَ أهلنا لها. رأيت آثار معركة برية حول قريتنا. دبابات محترقة وعربات مدرعة.. قصص تروى بمخيلة ماركيزية، حول تلك المعركة التي خاضها الأهالي، الذين تحولوا إلى محاربين! إذ أنهم بدعمٍ من كل الفصائل غير الإسلامية، واجهوا رتلاً مدرعاً مدعوماً بالطائرات حاول النظام من خلاله استعادة السيطرة على المدينة. كنتُ مندهشاً وأنا أسمع الروايات كمستشرق جاء إلى هذه المنطقة في القرن التاسع عشر. لم أكن أتخيل أن تجري في هذه القرية النائية معركة بهذا الحجم. كانوا يروون كيف نزح الأهالي من القرى بعد قصف الطيران، وخرجوا بأشيائهم البسيطة نحو البرية الواسعة، تحت شمس الله، واعتصموا بالجهة الشرقية للوهدانية. الناس منتشرون في أرضٍ لا تحدها سوى السماء من كل الاتجاهات. هائمون في هذه البقعة ككومبارس في مسلل

تاريخي ضخم الإنتاج يتم تصويرهم من الجو. هناك صور كثيرة لهذا المشهد وقد تكرر في قرى نائية أخرى على أية حال.

حينما كنتُ أروي ليعقوب الحكاية مندهشاً، قال لي: أعرف كل التفاصيل يا أخي. كنت موجوداً. قلت له لهذا أنت لا ترى حجم الغرابة في المشهد، لأنك عشته، لو كتبتُ هذا المشهد في رواية أو قصة قصيرة قبل أن يحدث، لأُعجِبَ القراء والنقاد بمخيلتي المجنونة، أو اتهموني باستعارة الغرائبية من كتّاب أمريكا اللاتينية.

كلما روى لي أحدٌ ما ما حدث؛ من الصغار أوالكبار؛ كنت أتخيل نفسي فوق التل، وأرى مشهد النزوح الكبير هذا، ومشهد المعركة أيضا. لم نعد مجهولين، أصبحنا ساحة معركة. أصبحنا مشهورين. أصبحنا نستغرب إذا قلنا لأحد أننا من هذه البلاد ولا يعرفها.. في الصيف الماضي ذهبت إلى زيوريخ، حيث يسكن في أحد ضواحيها أحد أصدقائي الصحفيين لكنه مجرد لاجئ مثلي وليس كاتبًا ضيفًا. كنت قد قررت أن أبقى عنده أسبوع، فقد كان وضعه النفسي في الحضيض. كما يقولون. الله يكون بعونه. قتل أخوهُ تحت التعذيب في سجون النظام قبل سنتين. وقتل خاله في غارة للطيران الروسي بينما كان يعزف العود. وأنا أذكر هذا للتأكيد على أنه من «المدنيين العزل». واعتقلت أباه القاعدة التي احتلت منطقتهم قبل ثلاثة شهور ولايعرفون عنه شيئا منذ ذلك الوقت.
مالكم بطول السيرة، بمصادفات غريبة، يرتبها بعض الكتاب قليلو الحيلة، متأثرين بالأفلام الهندية قديماً والمسلسلات المكسيكية حديثا، ويرتبها القدر أحياناً؛ الصانع الأكبر للمصادفات...، اجتمعنا أنا وصديقي يوسف وآدم، صديقه المدون المغربي الذي جاء قبل سنوات فاراً من بلاده وقابضاً على إلحاده كالقابض على جمرة من نار، حيث آوته «بلاد الأنوار» وتزوج لارا السويسرية التي تعمل كدليل سياحي، ورافقتنا مؤدية وظيفتها للاجئين هذه المرة وليس لسياح، وكريستينا صديقتي السورية التي لجأت إلى ألمانيا وصدفتها في محطة القطار قادمة من برلين، بينما كنت أهم بالمغادرة إلى ليون

الفرنسية لأزور أصدقاء لاجئين آخرين، وجعلتني ألغي رحلتي، وآنيتا صديقتي السويسرية التي تعرفت عليها في القاهرة قبل سنوات.

ذهبنا إلى شاطئ النهر لأن كريستينا أصرت على السباحة في نهر ليمات الذي يمر من وسط زيوريخ، ثم جاءت ميلينا متأخرة من العاصمة بيرن للقاء كريستينا حيث عاشتا فترة معاً في دمشق ولاحقاً في اسطنبول، وكنت قد أسميتها «ميلينا الله لا يوفقها» لأنها تأخرت. إضافة لصوفيا ذات الأصل الفنلندي والمتزوجة مصرياً من الإسكندرية، وهذه لوحدها يمكن أن تشكل منظمة تعنى بالإندماج!

سيعتقد كثيرون أني اخترع لكم حكايات وقصص من عقلي، ولكني بالفعل اختصرت كثيراً من هذه الحكاية بالذات لأن ما حدث يومها لم يكن طبيعياً. وكنت أردد طوال الوقت شعار مدونات الوورد بريس «أهلا بالعالم». هكذا هو العالم فعلاً، هذا هو العالم الحقيقي إن أردنا أن نكون بشراً طبيعين. كنت الوحيد الذي يستغرب هذا الخليط من بين الحضور، قلت لهم ما رأيكم أن نسجل جمعية تدرب اللاجئين على«الإندماج»، ترأسها صوفيا وتوزع علينا التمويل. يوسف قال إنه موافق بشرط أن يكون أول عمل للجمعية دمجه، وأضاف: «أنا جاهز للإندماج، لكن لا أعرف مع من سأندمج. لا أحد يقبل أن يدمجني.. هات ادمجوني لنشوف. عرفوني على صبية سويسرية لأندمج معها وننجب لأوروبا ثلاث أطفال على الأقل مندمجين وخالصين». طلبت منه أن ينظر إليّ، ثم طلبت منه أن يقف، ثم يبتسم. قلت له بعدها «أنت إندماجك صعب ويكاد يكون مستحيلاً. ملامحك شرق أوسطية واضحة وعلامات الإرهاب بادية على وجهك يلزمك لحية ويتم القبض علينا حالاً». وقفت كريستي بجانبه، وهي تضع على وجهها ابتسامة محطمة كأن شاحنة دعستها قبل قليل، هاتفةً «أنا.. أنا ادمجوني يا سيدي.. صبية وبيضا واسمي كريستينا..» وأمسكت ذقنها بيدها دلالة على الرجاء. بعد أن أمعنت النظر في وجهها مدعياً التدقيق في مدى صلاحيتها للإندماج. قلت لها بأسف « إنت ناعمة، ما تطلعي خمسين كيلو، من الصعب دمجك في ألمانيا.. الألمان ضخمين. كان اندماجك سهلا

لو لجأت إلى ماليشيا». آدم حضن لارا وقبلها، أعني على خدها.. قائلاً «أنا مندمج أنا دوري الآن».

جلسنا بجانب بعض أنا وآنيتا القادمة من الخرطوم، بعد أن عملت لسنتين في البصرة تحت حكم.. حكم من! كانت طاسة الحكم ضايعة في ذلك الحين. قلبنا دفتر الذاكرة مستغرباً أن أصادفها في هذه المدينة رغم أنها مدينتها وعاشت فيها حياتها قبل أن تذهب للشرق الأوسط لتعمل مع الصليب الأحمر في خياطة آثار الحروب وتتنقل في بلدان عديدة. حينما كنا في القاهرة كنت أدعوها إلى مقهى ريش لنشرب البيرة في رمضان ففي هذه الدولة البعيدة لا يقدمون المشروبات الكحولية إلا للأجانب في رمضان بغض النظر عن دينهم! وحينما كان يسألني «السرفيتور» عن جنسيتي أقول له: هي سويسرية. مرة قال إنه لن يقدم لنا سوى زجاجة بيرة وكأس واحدة! فقلت له ببلاهة لا توجد مشكلة سأشرب من كأسها.

كل ما ذكرته في هذه الحكاية هو مقدمة لا ضرورة لها لأقول لكم ما يلي: بينما كنا جالسين نتجاذب أطراف الحديث وندخن سكائر لف لأنها أرخص طبعاً. وقف بجانبنا شابان، سأل أحدهما إن كنا نعرف من أين يمكنه أن يحصل على الحشيش بينما كان ينظر إلى سيكارتي. قلت له إن ما ندخنه تبغ عادي وأعطيته سيكارتي ليمجَّ منها نفساً [كما يكتب القصاصون بفصاحة] وليتأكد من ذلك. حين سألته من أين أنتم. أجاب أنهما من سكان زيوريخ. قلت له باستغراب «أنت من زيوريخ وتسألني أين يباع الحشيش؟! نحن جميعاً غرباء..» قال أنه من زيوريخ لكنه أيضاً بدرجة ما غريب مثلنا! قلت ضاحكاً «هي صار عندنا زبون سويسري للجمعية سنحاول دمجه معنا» ودعوتهما للإندماج معنا. قبل أن يجلسا، سأل الشاب الذي كان يتحدث معنا السؤال المصيري الحاسم الذي لا مفر منه، والذي أصبحتم تعرفونه:

Where Are you from?

كنت ما أزال جالساً على العشب متابعاً حديثي مع آنيتا. قلت له بلا مبالاة: I do not know. لكن بعد أن تنطع يوسف للجواب قائلا إننا من سوريا دون أن يسمعه الرجل، وقفتُ إلى جانبه مشيراً ليوسف:

He Is from Syria. I am from Islmic State...

صافحني الرجل قائلاً: Welcome. لم تبد عليه أي دهشة أو استغراب. سألته مستغرباً: هل تعرف أين تقع الدولة الإسلامية. فنفى ذلك! هل سمعت بها؟ فكّرَ قليلا ثم أجاب بالنفي. سألته إن كان يعرف ISIS فنفى. زاد استغرابي الذي بدأ ينتقل للجميع فقلت له مؤكداً: ألا تعرف ISIS! فهز رأسه دلالة النفي. صافحت الرجل بحرارة وطلبت منه أن ألتقط صورة معه. أعطيت موبايلي لآنيتا ووضعت يدي على كتفه. قائلاً لها صوريني مع الرجل الوحيد في العالم الذي لا يعرف الدولة الإسلامية ولا يدري في أي الجهات تقع.

نعم، الجهات. علينا معرفة الجهات قبل أن نتحرك. حينما كنتُ صغيراً، ونتيجة الفراغ الطويل والمضني، الذي كانت حياتنا تسير بجانبه؛ كنتُ أنظر للأفق وأرى الخط الذي تلتحم فيه السماء بالأرض. كان حلمي أن أذهب وأرى تلك النقطة التي كنتُ أسميها «حدّ الدنيا»، وترجمتها «آخر نقطة في الكون». كنت أعتقد أن بعد هذا الأفق لا يوجد شيء. كان حلمي الطفولي أن أذهب إلى حدِّ الدنيا. كنت أريد أن أقف على حافته. كنت أعتقد أن خلفه هاوية. عدم. لاشيء. وكنت أريد أن أرى اللاشيء.

المهم يا جماعة، في يوم من الأيام، وبعد أن فشلت في العثور على السكاكر التي تخفيها أمي وأعثر عليها دائما، فكرت بشكل جدي بالذهاب إلى هناك، إلى حد الدنيا. تورطتُ وسألت والدي، فهو يعرف أكثر مني، كما يعتقد كل الأطفال، ويستطيع أن يُقدّر المسافة، وبناءً عليها سأقدّر ما أحتاجه من ماء وخبز وسأذهب دون أن أخبر أحداً. لكن والدي -الله يرحمه- دمّرَ لي هذا الحلم. حينما قال لي بلا مبالاة: «يا وليدي الدنيا مالها حدّ». كيف مالها حدّ.. ذاااك حدّ الدنيا. وأشرت إلى الأفق. ضحك والدي وحضنني قائلاً: «بي قرايا ومدن كثيرة وراه».

في اليوم التالي، كنت ما أزال في حالة شك حول «النظرية» غير المبرهنة التي دمّر بها والدي حلمي، صعدت التل الذي صرتم تعرفونه، لأثبت خطل نظريته.. خطل! ماذا تعني خطل! من أين جاءت هذه الكلمة! خطل والله مالها معنى.. ليسَ.. المهم، من فوق التلّ نظرت إلى الأفق من كل الإتجاهات، ودققت في أبعد نقطة يصل لها بصري، لأرى تلك القرى الكثيرة والمدن التي قال والدي أنها وراءه. لم يصل بصري أبعد من القرى التي نعرفها ونعرف أهلها. لكن تذكرت أني عندما كنت في قرية أقاربنا التي تبدو من هنا كآخر نقطة أراها، كان حدّ الدنيا ما يزال بعيداً. فشكّلت نظرتي الخاصة. إن حدّ الدنيا يبتعد كلما مشينا نحوه.

المهم يا جماعة الخير، عندما بدأتْ حياتي الجديدة بصفة «طالب لجوء» في السويد، قبل أن أرتقي سلم النجاح وأصبح لاجئاً رسمياً بموجب اتفاقية جنيف، أرسلونا إلى يورن؛ قرية صغيرة في آخر الشمال، وأسميها مسقط رأسي الجديد. يمرّ من يورن نهر صغير سمّيته نهر الشاي؛ لأن لون الماء يشبه لون الشاي. لم أعرف السبب حتى الآن. أبي كان يحب الشاي.. ليس فقط أبي كل سكان الرقة يحبون الشاي. ليس فقط سكان الرقة كل سكان الدولة الإسلامية يحبون الشاي. لم يكن هناك سوى الشاي. في الأفراح نشرب الشاي. في التعازي نشرب الشاي. للضيوف نقدم الشاي. في الصباح نفطر شاي وخبز، قبل أن تبدأ الأغنام بالتكاثر ويبدأ موسم الألبان والأجبان. قبل أن ننام نشرب الشاي. يغنون الأغاني عن الشاي، تحديدا شاي العصر ولا أدري لماذا! [يتوجّه للجمهور: هل يعرف أحد منكم ما الذي يجعل شاي العصر مميزاً؟!] الشاي الثقيل يشربونه كمشروب كحولي أيضا في السهرات. شاي ثقيل وموليا. أصلاً الموليا لا يُشرب معها سوى الشاي. ربعنا اعطهم شاي وغنيلهم موليا واسرق المدينة كلها لن يحس بك أحد.

كانت مهمةُ صب الشاي للضيوف موكلة للصغار. الصغير في قرانا يبدأ حياته بالعمل «سارفيتور»[13]. حينما تفرغ كأسُ أحد الضيوف ونتجاهلها متكاسلين ومتمنين أن يقوم أحدٌ آخر بالمهمة، ينهرنا أحد الكبار «قم صب شاي.. تالله عليك.. قاعد ومسلهم»!

الكبار ليس لديهم عمل سوى إعطاء الأوامر، وتوبيخ «السارفيتورات» الصغار على تقصيرهم الدائم. يمكن أن نسميهم مشرفو الخدمات أو صنّاع النصائح المزعجة والسخيفة. أصلاً السبب الرئيسي لوجود الأهل في الحياة هو تعكير حياة الأبناء وإزعاجهم. كلكم كنتم صغاراً ومررتم بهذه المأساة. أعني أن يكون لكم أباء مهمتهم الأساسية منعكم من فعل الأشياء الممتعة التي تحبونها. حتى الشاي كانوا يمنعونا أن نشربه كثيراً بحجة الحفاظ على صحتنا! أي صحة يارجل تلك التي يدمرها الشاي! لو جاء أطفال الدولة الإسلامية إلى يورن لشربوا من نهر الشاي حتى ملّوا دون رقيبٍ أو حسيب..

كنت أقف على الجسر الخشبي فوق نهر الشاي لساعات أفكر بالدنيا. ليس لأني أعشق التأمل. أو أرسم الخطط لإنهاء الحرب في سوريا. ببساطة، لم يكن هناك أي شيء أفعله وأنا أنتظر قرار المحقق بمنحي حق اللجوء، الذي كان في تلك الأيام تحصيل حاصل. لكن مع ذلك قد يستمر الإنتظار لسنتين. لا يمكنك أن تفعل شيأً بانتظار هذا القرار. لا يقبلونك في مدارس اللغة ولا يمكنك أن تعمل بدون لغة.. وتعيش هذا القلق المستمر فتضطر للتفكير الكوني بمصير العالم الذي سيصاب بالحصبة لو لم تفكر فيه.

مرة وأنا على جسر الشاي، وكنت حينها أعدل الموازين المختلة في سوق العمل في العالم، لأوقف الاندفاعة المحمومة لسوق الأسهم التقنية.. تذكرت حلمي القديم بالوصول إلى حد الدنيا، عدتُ إلى غرفتنا الصغيرة التي أعطتنا إياها دائرة الهجرة وقلت لابنتي: غداً سأذهب إلى كيرونا. قالت باستغراب: «أوف وليش كيرونا بالله؟!» قلت لها لأنها آخر مدينة في شمال السويد. لدي حلم قديم في الوصول لحد الدنيا. وحكيت لها قصتي مع

[13] En servitor كلمة سويدية تعني نادل

أبي [هل تريدون أن أعيدها لكم؟] ابنتي قالت: «أها.. حتى أنت كان عندك أفكار سخيفة لما كنت صغيراً!»

في اليوم التالي ذهبت فعلا لكيرونا وعدت في نفس اليوم. التجربة لم تكن تستحق هذا العناء إنها مدينة عادية ووجودها في «كس أم الدنيا»[14] لا يعني أي شيء. أبنية تشبه كل أبنية المدن السويدية، ونساؤها جميلات كذلك، مثل كل نساء السويد. لكني لم أر اللاشيء، لم أر حدّ الدنيا.

عدتُ من مغامرتي الفاشلة وتحمّلت سخرية ابنتي. ابنتي التي أورثتُها كتابة القصص وهي طفلة، كما أورث الديكتاتور البلاد لابنه، روت لي كيف حاولت مرة، هي وأخوها وأطفال الحارة تطبيق فيلم كارتوني، وحرق الحديقة التي أمام بيتنا بإشعال النار عند جذع شجرة، لكن الحارس اكتشف محاولتهم وأحبطها في مهدها، وقدم شكوى ضدهم حينما خرجتُ أبحث عنهم. قالت أني غضبت حينها، واقترحتُ عليها موبخاً، أن تكتب قصة عن نفسها وتسميها «أشرار الحديقة»! دون أن أنظر لمغامرتهم بعين الطفل الذي كنتُه. ها أنت لديك مغامرات سخيفة مثلنا. قالت ذلك وهي لا تستطيع التوقف عن الضحك. قلت مدافعاً عن نفسي: الأمر مختلف من وجهة نظري، مغامرتي استكشافية معرفية أما مغامرتكم فهي تخريبية. قلتُ مهاجماً بعد أن تذكرت أننا في السويد حيث حماية البيئة دين رسمي: تحرقون الحديقة وتريدين مني السكوت! زعلانة من كم كلمة قلتها.. هذا تدمير للبيئة! احمدي الله أنك لم تكوني في السويد حينها وإلا لرافقك عار تخريب البيئة طوال حياتك. حتى في سجل حياتك سيكتبون بجانب اسمك: حاولت وهي صغيرة تدمير البيئة!

يا للأبناء! لاينسون. الأبناء ذاكرتنا الخارجية. يعيدون لنا قصصاً منسية. لم ندرك بما يكفي تأثير كلماتنا وأفعالنا على حياتهم. لكنهم سيدركون سلوكنا حينما يصبح لهم أبناء.

[14] تعبير شائع في محافظة الرقة على الأقل يستخدم للدلالة على بعد المسافة.

خيبتي من هذه المغامرة أعادت حلمي الطفولي إلى مكانه في قاع الذاكرة البعيدة. لكن الأحلام لها دروب تسلكها، إذا كان حلمك قويّاً سيتحقق مهما طال الزمن، إن لم تنس حلمك سيتحقق. الأحلام تحقق ذاتها بمعزل عنك. بعد أن تحلم، يصبح الحلم منفصلا عنك، مهمتك فقط أن تبقيه على قيد الحياة وتتذكره بأوقات متباعدة، سيتحقق بطريقة ما مثل الحلم. وستقف مدهوشاً أمام تحققه بطريقة لم تخطر لك على بال.

كنت قد تعرفت على سارة في كوبنهاغن، في نشاط ثقافي ذهبت لحضوره حينما كنتُ مقيماً في مالمو. كانت "كاتب ضيف" في إحدى مدن النرويج. وبينما كنت أروي لها التعقيدات التي أواجهها كلاجئ في اسكندنافيا، كانت تروي لي التعامل اللطيف معها من بلدية المدينة الصغيرة التي استضافتها. كنت أقول لها طبعا أنتِ كاتب ضيف! لست لاجىء مثلي. عليكِ أن تستغلي هذه الفترة لأنه بمجرد انتهاء إقامتك ككاتب ضيف وتحولك إلى لاجئ سيختلف التعامل معك كليّاً حتى لو حصلت على نوبل في هذه الفترة. إذا كنت لاجئاً، حتى لو كنت تحمل نوبل في الأدب، الاقتصاد، أو حتى الطب، سينصحك الموظف المسؤول عنك في مكتب العمل بأن تلحتق بدورة لقيادة الباصات أو دورة لمدة ستة شهور لتصبح سِارفيتور.. أخذنا درس السارفيتور أثناء تعليم اللغة أكثر من عشرين مرة. الجميع يحفظه. دائما يأت كسؤال في الامتحانات. أكتب موضوعا عن مهنة السارفيتور. مطعم يبحث عن سارفيتور اكتب رسالة مع السيرة الذاتية وتقدم للوظيفة. اكتب عن سارفيتريس أحببتها.. سبحان الله.. المهن باللغة السويدية نفسها للمؤنث والمذكر إلا السارفيتور... مرة صرخت بمعلمتي التي أحبها: أنيتا.. أنيتا يكفي. ألا يوجد في العالم مهنة غير السِارفيتور! في هذه القاعة يوجد صحفي ومحامي وطبيب وثلاثة معلمات.. هل تريدون أن نعمل كلنا سارفيتورات! انفعلتُ يومها بشدة وقلت لها أن هذا المنهاج عنصري، وسأتقدم بشكوى ضد المدرسة. حين احتجت ببساطة اللغة قلت لها لنحضر المستوى المقابل من المنهاج الذي يدرسه الطلبة السويديون لنرى إن كان لا يدرِّسُ مهنة أخرى غير السارفيتور والسارفيتريس..

كنت أروي لسارة قصص «الاندماج» عندما نتحدث مع بعض في أوقات متقطعة. ذكرت لي مرة أن الناس يتعاملون معها في الغالب كلاجئة. قلت لها: سأتبرع لك بتي شيرت مطبوع عليه من الأمام والخلف: أنا كاتب ضيف ولست لاجىء. ضحكت يومها قائلة: لكن أهلي لاجئين في ألمانيا! حسناً، قولي هذا أيضاً إذا سألك أحد ما المشكلة بأن يخطىء البعض ويتعامل معك كلاجىء. قولي؛ ليس لدي مشكلة بالطبع مع اللاجئين؛ أهلي لاجئين، أصدقائي لاجئين، نصف سكان بلادنا أصبحوا لاجئين، لكن أنا أتحدث عن حقيقة وجودي هنا. أنا كاتب ضيف ولست لاجئاً ولا أقبل أن تعاملوني كلاجئ. لا تشعري بالحرج؛ فإنقاذ شخص في العالم من التعامل معه كلاجئ أمر يستحق الجهد وتحمل سوء الفهم!

غرباء نحن في هذه القارة الإسكندنافية، نذهب إلى دورات الإندماج واللغة شاردين كشخص مايزال في غيبوبة بعد عملية جراحية! تلك الدورات التي أسميتها متندراً دورات التدجين. لم نحتج أنا وسارة وقتاً طويلاً لنصبح أصدقاء. مرة كنا نحكي، وذكرتْ أن عيد ميلادها بعد غدٍ! قلت لها بطريقة مسرحية وأين ستحتفلي أيّتها الكاتب الضيف؟ قالت: من كل عقلك تحكي! أين احتفل! سأشعل شمعة.. وكأس نبيذ وأتأمل الوجود والعدم.. لا فائدة من تأمل الوجود، سأكتفي بتأمل العدم. حين ذكرت أنه عيد ميلادها الأربعين. قلت لها اكتبي لي اسم مدينتك.
وضعت اسم المدينة الذي كتبته على خرائط العم غوغل. يا إلهي نوردكاب.. شعرت بدوار عندما عرفت أين تقع مدينتها. كانت تبعد عن كيرونا التي اعتبرتها نهاية العالم مسير ثمانية أيام بلياليها. ومع ذلك قرّرتُ ألّا تحتفل سارة بعيد ميلادها الأربعين وحيدة، فهو لن يمر في العمر إلا مرة واحدة.

وصلتُ ساحة نوردكاب. كانت الساعة العاشرة مساءاً. الشمس ما تزال مشرقة، حيث لا تغيب الشمس لأشهر في تلك البلاد. وهذا يدمر الحقيقة العلمية التي اكتشفها المسلمون بأن الشمس تشرق كل يوم. قبل أن أصل بنصف ساعة تقريباً سألت سارة

ماذا تفعل الآن! فكتبت أنها ستستعد لسهرة عيد ميلادها.. سترتدي فستاناً أحضرته من الشام ولم تلبسه حتى الآن. ستلتقط لنفسها بعض الصور وتنشرها على الفيسبوك ليشاركها أصدقاؤها السوريون المشردون حول العالم احتفالها. وتشرب النبيذ حتى تسكر. قررت أن أسكر اليوم. هكذا قالت. استمرينا في الحديث الكتابي حتى وصلت مركز المدينة.. لا إنها قرية.. كتبت لسارة: تعالي إلى ساحة نوردكاب، انتظرك لنحتفل معاً بعيد ميلادك. لم تصدق بالطبع مثل أي شخص طبيعي وعاقل. بل كل مرة أؤكد لها ذلك تحاول فتح موضوع آخر. كتبت بغضب.. أعني كتبت جملتها ووضعت وجهاً غاضباً: خلص عيوني.. ناقصتك أنت! اتركني أرتب نفسي لسهرة «الوجود والعدم». كتبتُ: لكنك حذفت الوجود من السهرة بقي العدم فقط.. قومي إلبسي «فستان الشام» وتعالي خلصينا.. تحادثنا صوتياً ولم تصدق. أرسلت لها موقعي عبر تطبيق للتواصل الفوري ولم تصدق. أعطيتها اسم المقهى الذي أنتظرها فيه ووصفت لها الأشياء التي أراها في الشارع ووصفت لها المقهى الذي تعرفه... حين صدقت بدأت بالبكاء.

رأيتها من زجاج المقهى وهي قادمة كانت أشبه ببلاهة تمشي على قدمين، تقفز سعيدة. لم تصدق أن أحداً تعرفه سيصل هذا المكان. حين احتضنا بعضنا في المقهى.. انخرطنا في البكاء بصوت شبه مسموع. أصبحنا فرجة للإخوة النورديين القليلين في المقهى، حتى أن السارفتريس الجميلة شاركتنا البكاء. حين أخرجت لها دبدوباً أبيض كبير وقدمته لها بحركة مسرحية؛ عانقته وبكت أيضاً. فسارة من طفولتها حتى الآن منخرطة.. [منخرطة يارجل عيب عليك تكتب عن صديقتك منخرطة.. استح على وجهك. اكتب مستمرة، وبلاها الفصاحة] حسناً أعني مستمرة في عشق «الدباديب». مرة قلت لها: كيف أحببت هذا الشخص يا سارة! قالت ضاحكة: نقطة ضعفي الدببة كما تعلم.. قسم بالله كل من أحبتهم في حياتها دببة.. وكي أنهي هذا المشهد الذي بدا رومانسياً وعاطفياً ساخناً يمكن أن يذيب الجليد في القطب الشمالي ونغرق، قلت مرتدياً الابتسامة السويدية التي تعلمتها بصعوبة: ها أنت في موطن الدببة، يمكنك أن تتزوجي دباً حقيقياً وتنجبي عائلة من الدببة...

اعتقد الجميع أننا مجرد لاجئين عاشقين تقطعت بهما السبل والتقيا أخيراً في نوردكاب. كنتُ وسارة في مشاعر مختلطة بين الفرح والهشاشة والبلاهة. كان المكان خارجنا بلا معنى والزمن أصبح هشاً وضعيفاً، أعتقد أنه بكى معنا أيضاً.

بعد أن استعدينا للذهاب من المقهى إلى بارٍ في القرية لنحتفل؛ اقترب منا شاب معرفاً عن نفسه، كصحفي في جريدة محلية في المقاطعة، وأن لديه فضول ليعرف قصتنا ويكتب عنها، إن كان ذلك ممكناً. قلت له: لا يوجد قصة يا صديقي تصلح مانشيت، بل لا يوجد قصة تصلح للنشر أصلا. أخرجت له فاتورة من جيبي وقلت له هذا فاتورة «الدبدوب»، اشتريته من سوق المطار الحرة..أنظر، لم أقتحم أحد المحلات لسرقته. وكما ترى لم أقم بعمل إرهابي ولم أتحرش بهذه الفتاة، إنها صديقتي، فقط صديقتي، فلسنا عاشقين حتى.. أنا مجرد لاجىء، وصديقتي كاتب ضيف في هذه المدينة، واليوم عيد ميلادها ونريد أن نحتفل بها. كان مبتسماً كالعادة، أثناء اندهاشه من طريقتي في الحديث معه. سألني لحظة أن أمسكت يد الباب أريد الخروج:

Excuse me, where are you from?

قلت له وأنا اهم بالخروج، بعد أن خرجت سارة، بصوت عال وواضح:

She is from Malaysia, and I am from Islamic State..

حين خرجت. كانت سارة تضحك بجنون وهي تشير للصحفي الذي بقي متجمدا مكانه. في البار، وبعد لترين من النبيذ الأحمر، بقيت سارة غير مصدقة وجودي. تتلمس يدي، وجهي أحياناً، وتطلق ضحكتها الودودة كل مرة تفعل هذا قائلة: عن جد [وتلفظ الجيم مصرية كما أفعلها ساخراً] هذا أنت ولا مجسم مصنوع في استديوهات الجزيرة..

قلت لسارة عيد ميلادك، ووجودك في نوردكاب حقق لي حلماً عمره أكثر من أربعين عاماً، الأحلام قد تتأخر لكنها تتحقق. حكيت لها قصتي مع أبي وحلمي بزيارة حد الدنيا. سارة التي سحرها حلمي وتعبير «حد الدنيا» الطفولي. قالت بدهشة أفلام الكرتون: إنه هنا.. إنه هنا حيث نجلس تماماً. أنا أعيش في حد الدنيا.. من نافذة منزلي في الطابق الثاني

سترى العدم أو اللاشيء بشحمه ولحمه. لو كان والدك لديه «سمارت فون» في قبره، لأرسلت له موقعك ليتأكد أن ابنه وصل حد الدنيا...

نعم يا أبي
لقد وصل ابنك أخيراً إلى حد الدنيا
وصل دون مجازات
كانت رحلة طويلة وشاقة يا أبي
عبرنا قرى ومدناً كثيرة يا أبي حتى وصلنا هنا
وصلنا هنا حفاة وعراة بـ«طركَ»[15] الذكريات
مات منا نصف مليون في الطريق يا أبي
لكنّا وصلنا إلى اللاشيء أخيراً يا أبي.

موتالا 2016

[15] كلمة يستخدمها سكان وادي الفرات وتعني فقط بـ وتستخدم عند الحديث عن اللباس. يقال: بطركَ ثوب. وتعني كنت أرتدي فقط ثوباً، ولا شيء آخر.

قطار الكرنتينا

المشهد الأول: الدخول إلى الحجر

[غرفة صغيرة، سرير مفرد وسائد وغطاء وشراشف بيضاء، نافذة زجاجية مغلقة، طاولة عليها تقويم. تدخل سيدة في الأربعينات تحمل حقيبة صغيرة، تضعها على الأرض، تنظر حولها بينما جوالها في يدها].

ها أنا هنا. أربعة عشر يومًا من الاحتجاز القسري.. كافية للتفكير في مصير الحيتان والطرق العملية لإنقاذ الباندا من الانقراض.. لا، لا.. ربما من الأفضل قضاؤها في التأمل القسري في مصيري في هذا السجن بدلاً عن هدرها في التفكير في إنقاذ حيوانات العالم. [تنظر إلى التقويم] هل أحفر علامات العدّ على الجدار؟ لا، أنا لست في سجن. لكن.. أليس هذا سجنًا؟ حتى لو أطلقوا عليه «الحجر الصحي» تلطفاً. لم أدخل السجن من قبل، لكن رأيت السجون في الأفلام والمسلسلات وقرأت عنها في الروايات. أقسى السجون هي ما كتب عنها الروائيون العرب. أوه.. لا أريد أن أغرق في فكرة السجن، إنه مجرد حجر مؤقت من أجل خير البشرية. على الأقل هنا أعرف متى سأخرج ولدي جوال متصل بالأنترنت ودفتر وأوراق للكتابة.. ماذا أريد أكثر!

[تجلس على السرير، تنظر حولها ثم تنهض كأنها غير قادرة على البقاء جالسة].
صارت الحياة كأنها فيلماً عن الكوارث النووية والإشعاعية، حيث يرتدي العلماء بدلات واقية ويأخذون عينات من الهواء والتربة. لكني أنا العينة هنا. لا احتكاك، لا خروج، لا شيء سواي و.. زمني. أخذوا كل أغراضي، أعادوا لي جوالي بعد تعقيمه. لبست هذه البيجاما القطنية البيضاء، مع غطاء الشعر والكفوف وغطاء الصندل البلاستيكية.
[تبدأ بخلع الصندل والكفوف وغطاء الشعر.. تنظر حولها، تتجه إلى النافذة وتحاول فتحها، تكتشف أنها غير قابلة للفتح، تراقب العالم الخارجي من خلف الزجاج كأنها تراقب العالم من خلف القضبان].
حسنًا، سأعدّ الأيام.. الأيام! لا الساعات.. بل الدقائق وربما الثواني.. سأقسّم اليوم إلى مراحل؛ الصباح للتفكير، الظهر للأكل، المساء للتأمل، والليل للندم. ما الذي يمكن

فعله هنا! هل يمكن أن أندم على شيء لم أفعله؟ ربما! الندم على الأشياء التي لم نفعلها أشـد مرارة من الندم على الأشـياء الخاطئة التي فعلناها. فما زلت نادمة أنني لم أركل زميلتي في الصف الأول عندما سرقت مني قلمي وادعت أنه لها.

[تتلفت داخل الغرفة تتفحصها بشرود].

أظن أن هذا مكان مناسـب لتشـغيل فيلم حياتي السـابقة في رأسـي. سـأرى كيف مر عمري عبر الزمن حتى هذه اللحظة. سـأرى أخطائي. ربما لا أسـتطيع اكتشـافها في المشـاهدة الأولى، سـأعيد الفيلم ببطء في الأماكن التي أشـك أني أخطأت فيها، أتأملها وأرى كيف يمكن تصحيحها. ولماذا عليّ تصحيحها! هل هناك حياة خالية من الأخطاء! ماذا يبقى من حياة الإنسان إذا جردناها من الأخطاء! الحياة المعقمة من الأخطاء تشبه الوضع الذي أنا فيه! كل شيء معقم لكني خارج الحياة.

[تفتح جوالها، تتصفح قليلاً وهي ما تزال أمام النافذة، تضحك بسخرية وترميه باتجاه السرير].

قال لي الناس في الخارج: «اسـتغلي الوقت! إقرئي، شـاهدي التلفزيون، اكتبي، مارسـي الرياضـة...» حسـنًا، ماذا لو لم أشـعر برغبة في فعل أي شـيء؟ واكتفيت بمراقبة هذه الجدران. أمضـيت حياتي في السـويد دون أن يكون في بيتي تلفزيون. لم أدفع ولا مرة ضريبة التلفزيون التي تُدفع مباشـرة للهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون لتبقى بعيدة عن التمويل الحكومي وتحافظ على اسـتقلالها. كنت منبهرة بذلك قبل اكتشـافي أنها مجرد هيئة حكومية لكن بإخراج ذكي يوحي باسـتقلاليتها. [تتوجه للجمهور] الفرق بين الحياة الواقعية في السـويد والحياة التي يصـدرونها لكم في الخارج تشـبه الفرق بين صـوركم المتألقة المفلترة التي تنشرونها على شبكات التواصل وحقيقتكم الكالحة.

[تمشي في الغرفة ذهابًا وإيابًا، تقترب من الحقيبة، تفتش فيها].

آمم.. لا يوجد شـيء من أغراضـي الشـخصـية، اسـتبدلوها بملابس قطنية داخلية وبيجاما أخرى معقمة. حسنًا [تتجه إلى الدفتر والقلم على الطاولة] ربما أستطيع كتابة

شـيء ما، مذكرات يومية على سـبيل المثال. «اليوم الأول في الحجر: لا شـيء حدث حتى الآن». [وهي تضـحك] وغدا سـأكتب نفس العبارة وبعد غد.. «لا شـيء حدث أيضًـا». أعتقد أنها سـتكون يوميات ممتعة للغاية! ربما سـأنشـرها كتاباً؛ «حياتي في الحجر الصـحي».. لا، مفردة الكُرنتين Quarantine توحي بشـيء إيجـابي أكثر من «الحجر الصـحي» على الأقل لمن لا يتحدثون لغات أجنبية؛ تبدو كرحلة في بسـاتين مثمرة. في اللغة العربية يلفظونها كرنتينا، تحس أنك تأكل برتقالاً قُطف للتو عندما تسمعها. ألم أقل لكم إن الأخوة في الغرب أذكياء في جعل الواقع براقاً مهما كان مزرياً.

[يُسمع صوت جرس الباب الخفيف، تنتبه، ودون أن تتحرك باتجاه الباب].

أخيراً! شكل من أشكال الحياة! زمن خارجي متحرك يقاطع زمني الساكن في هذه الغرفة. الزمن الذي تحت سـيطرتي.. تحت سـيطرتي! من يقدر أن يسـيطر على الزمن حتى لو كان داخلياً!

[تتجه نحو الباب، تفتحه بحذر، تجد صـينية طعام على طاولة صـغيرة، لا أحد في الممر، تنظر حولها ثم تأخذ الصينية]

الطعام يصـلني مثل السـجناء! ترى، من يضـعه هنا؟ إنسـانٌ حقيقي؟ أم روبوت؟ هل لـدى الروبوتـات إحسـاس بـالزمن! لو عزلنـا الإنسـان عن حركتي الزمن الخـارجيـة والداخلية هل سـيتحول إلى روبوت بشـري! لا.. إنها فكرة سـخيفة. الإنسـان روح وعقل وجسد ومشاعر. ربما سيأتي وقتٌ آخر يصنعون فيه روبوتات كالإنسان.

[تُدخل عربة الطعام، تفتح أغطية الصـحون بالتتابع] أرز بلاسـتيكي، دجاج مطاطي، وخضـار مطهية حتى الموت. رائع! هذا ليس سـجنًا فقط، بل تجربة ذوقية تأخذك إلى العصـر الحجري. هل كانوا يعرفون هذه الأشـياء في العصـر الحجري! الدجاج والأرز والخضار... كانت لها حياة، تتنفس وتشرب قبل أن يحصدها الإنسان ويجعلها طعاماً. عندما تُحصـد النباتات وتُذبح الحيوانات تصـبح طعاماً، أشـياء مجردةً من حياتها، مجردةً من الزمن. يصبح زمنها ساكناً أبدياً في رحلة عودتها إلى الأرض على شكل نفايات! آه.. إنها فكرة رائعة أن نتخيل الإنسان آلة لتحويل الأشياء الحيّة إلى نفايات!

[تنقل صحون الطعام وأدواته إلى طاولة الغرفة، تجلس لتأكل، ثم تتوقف فجأة، تنظر إلى الباب].

ترى.. لو فتحت الباب بسرعة، هل سأتمكن من رؤية الشخص الذي وضع الطعام؟ هل هو رجل؟ امرأة؟ هل يراقبونني بالكاميرات ليروا إن كنت قد أكلت؟ قالوا لي إن عليّ التغذي بشكل جيد لأن ذلك يقوي جهاز المناعة. يا للتسمية الغريبة! جهاز المناعة! يجعلك تتخيل أن داخل الإنسان شبكة من الأسلاك مرتبطة بأجهزة كثيرة؛ جهاز القلب، جهاز الكبد، جهاز المعدة.. لكن هل يوجد جهاز للزمن؟ [تفكر لحظة، ثم تهز رأسها] لا، لن أفتح الباب مباشرة، لا أريد رؤية الشخص الذي يجلب لي الطعام. لا أريد إفساد الغموض. لأحافظ على وهْم العناية الإلهية.

[تتناول لقمة، تمضغها ببطء، ثم تتوقف فجأة].

لا يوجد طعم! هل أنا مصابة بالكورونا؟ أم أن هذا الطعام مجرد طعام بلا روح؟ سأتركه خمس دقائق قبل أن آكل، قد يتغير الطعم؟ ربما عليّ تخيل التغيير حتى لو لم يحدث، فالأشياء هي ما ندركه. سأرى تأثير مرور الوقت على حياة الأشياء الميتة. هل هناك زمن بعد الموت أم أنه يتوقف في لحظة الموت. من يدري؟ لم يعد أحد من الموت ليخبرنا عن حياة الأموات. هناك كُتَّابٌ تخيلوا ذلك، لكنها مجرد تخيلات. بعضها تخيلات بائسة.

المشهد الثاني: تأمل الساعة

[الغرفة خالية من طاولة الطعام، تتمدد على سريرها، تضع كفيها متشابكة في حضنها، تحدق في السقف].

هل الفلاسفة على حق؟ الزمن يقوم على إدراكنا له؟ لم أشعر ببطء الزمن بهذه الصورة من قبل. إنه يزحف، كل لحظة تبدو أبطأ من التي تليها. هذا الحجر يتحول إلى

مختبر نفسـي! نعم، سـأتأمل الزمن كما لم يدرسـه أحد من قبل. سـأرى إن كان الملل القسري يصنع منا فلاسفة.

[تنهض وتأتي بدفتر المذكرات والقلم، تعود لتتمدد على السـرير، ظهرها إلى الوسـادة، تقلب الدفتر، تفتح صـفحة، تمسـك القلم لتكتب، تكتشـف وجود سـاعة الحائط أمامها، تبدأ بسماع تكات الساعة، وهي تنظر إليها].

أليس هذا غريبًا؟ أنا عالقة هنا، ومع ذلك عقلي نشـط بشـكل مريب. ربما الحياة في الخارج مجرد تشتيت لصفاء ذهن الإنسان، ربما منحني الحجر هدية غير متوقعة. هذا البطء اللامتناهي في مرور الوقت. ما العلاقة بين الوقت والزمن؟ حسـنا لنبحث في غوغل عن "ماذا قال الفلاسفة عن الزمن".

[تقرأ نتائج البحث] أفلاطون رأى الزمن ظلالاً للعالم الأبدي المثالي. أي أنه ليس مستقلاً بذاته، بل هو تعبير عن التغيرات في العالم المادي. [ترفع رأسـها عن الجوال] زمني في هذه الغرفة ثابت فلا شيء يحدث سوى انتظاري انتهاء الحجر. زمني توقف عند دخولي هذه الغرفة وسيبدأ عند خروجي منها! أوه يا إلهي ماذا عن السجناء الذين قضوا معظم أعمارهم في السجون! هل كانوا خارج الزمن.. فحياتهم توقفت في الزنازين وأيامهم مكررة بشكل ممل. تشبه يومياتي في هذه الغرفة فـ «لا شيء يحدث»، ربما سوى العذاب، على الأقل لا أحد يعذبني هنا. [تعود للقراءة من الجوال] أرسـطو اعتبر الزمن مرتبطًا بالحركة والتغير. رأى أن لا زمن دون حركة أو تغيير، فالزمن مقياس للتغيير. [تنظر إلى الجدار المقابل] ما الذي يمكن أن يتغير في حياة السجين! أعني حياتي في الحجر أيضـاً! [تعود للقراءة] كانط رأى الزمن شكل من أشكال الإدراك البشري. البشر يدركون الزمن كجزء من تنظيمهم للعالم حولهم، فالزمن ليس موجودًا كحقيقة مطلقة ولا يسـير بشكل مستقل عن حياة الإنسـان كما رآه نيوتن. [ترمي الجوال بجانبها] لا. الزمن ليس متشابهاً ولا يمضي على الوتيرة نفسها. ها هو اليوم الرابع لي في الحجر والزمن حولي وفي داخلي سـاكناً و «لا شـيء حدث» بينما كان يجري قبل أن أدخل هذه الغرفة كنهر متدفق.

[تجلس على ركبتيها فوق سريرها، تشير إلى الساعة بقلمها الذي في يدها بعد أن ترمي الدفتر الى السرير].

أوه هناك ساعة. لدي ساعة أعرف منها الوقت، لدي مفكرة وجوال أعرف تاريخ اليوم، هذا فرق جوهري بيني وبين السجناء، الذين يخرجون من الزمن. بعضهم يموتون خارج الزمن، وبعضهم يتصلون بالزمن عبر حفلات التعذيب، الزمن لكثير من السجناء في دول شتى في هذا العالم مرتبط بالعذاب، الموت يأتيهم من خلال الزمن الخارجي الذي يدخل إلى زمنهم الساكن ويعيث به عذاباً حتى الموت. تصعد أرواحهم إلى زمنها الأبدي الساكن. ساكن! ما يدرينا أنه ساكن! ألم أقل إنه ليس لدينا إدراك لزمن ما بعد الموت. هذه الساعة تدوّن حركة الوقت والمفكرة تدوّن حركة الأيام وأنا أتأمل حركة الزمن في داخلي، رغم تحرك الساعة وتوالي الأيام إلا أن زمني ثابت لا يوجد فيه أي تغيير.

[تنزل عن سريرها، تمشي باتجاه الساعة، تنتبه لجهاز التلفزيون المعلق بجانب الساعة على الحائط لأول مرة].

أوه.. تلفزيون! تغير التلفزيون بمرور الوقت. أصبح شاشة مسطحة تُعلق على الحائط، لم يعد يحتل مساحة كبيرة من المكان الذي ربط الفلاسفة الزمن به وتغيراته. تغيرت فيه أشياء كثيرة؛ الألوان، طريقة البث، نشرات الأخبار، المسلسلات، البرامج.. عاصرت الزمن الذي قالوا فيه سيأتي يومٌ يصبح فيه البث التلفزيوني عبر الأقمار الصناعية، أما الآن فهو يبث عبر الأنترنت.. الأنترنت حكاية أخرى.. لم يكن أحد يتخيلها.. من كان يصدق أنه يمكن أن يرسل رسالة لشخص في المكسيك من صحراء إفريقيا وتصل في لحظتها! من كان يتخيل أن حياة الناس تنتقل من الحياة الواقعية إلى شبكات التواصل الاجتماعي! أصبح الوقت سريعاً سريعاً كقطار يمشي على سكة منحدرة دون مكابح. لكن هل تغير إيقاع الزمن الداخلي للناس!

[تتجه إلى الكوميدينة التي بجانب السرير، تلتقط جهاز التحكم وتشغل التلفزيون على قناة إخبارية عربية، تشاهد قليلاً ثم تطفئه].

تحولت كل التلفزيونات.. ووسائل الإعلام والنشر إلى بث متصل عن الكورونا.. لا شيء غير الكورونا. بعضها أثار الرعب لدى البشر؛ أخبار عن انتشار الوباء، أخبار عن عدد ضحايا الوباء، عدد المصابين، تحول البشر في الأخبار إلى أرقام، تحليلات، تعليمات، إجراءات، إحصاءات.. عاش البشر زمنا موحداً. ربما هذا يحدث لأول مرة في التاريخ. توقفت الحروب، المصانع، الحركة.. أصبحت حياة البشر موحدة في زمنها الخارجي، زمن ساكن ليس فيه سوى الموت، الذي يتنقل عبر الكرة الأرضية دون أن يستطيع أحدٌ إيقافه.

تُرى، ماذا سيحدث عندما أخرج؟ سأعود إلى التزام الحجر المنزلي وأنتظر مثل كل البشر انتهاء زمن كورونا.. ولكن ماذا سيحدث بعد زمن الوباء؟ هل سأعود للركض في دوامة الحياة؟ أم أنني سأحمل معي هذا الإدراك الجديد للزمن وتكون حياتي أكثر بُطئاً وتمهلاً؟

[تجلس على السرير، تنظر إلى النافذة، تبتسم بهدوء].

ربما لم يكن الحجر سجنًا.. بل نافذةً لفهم العالم.. فهم عالمي الداخلي على الأقل.

المشهد الثالث: الأصوات

[الساعة تشير إلى العاشرة، ليلاً، مستلقية على السرير، تستمع إلى أصوت خطوات في الممر، تنهض ببطء، تقترب من الباب، تضع أذنها على الباب، ثم تضحك].

من هؤلاء؟ أصوات أقدامهم سريعة، كأنهم في سباق مع شيء غير مرئي. لا أحد يتحدث، لا أحد يهمس. حتى لو رأيتهم، فهم أردية بلاستيكية متشابهة، الأختلاف الوحيد بين العاملين في المشافي والمصحات وأماكن الحجر هو حجم الجسم وعيون الإنسان فقط. أليس غريبًا أن يصبح البشر أشباحًا حتى ونحن نراهم أمامنا؟

تخيلت أنهم أرواح سجناء قتلوا تحت التعذيب. يقال أن الأرواح التي انتزعت من أجسادها عنوة لا تغادر المكان.. أووه.. لا.. علي إبعاد هذه الأفكار المخيفة عن رأسي،

إنهم مجرد عمال في الفندق الذي حُجرت فيه. تحولت الفنادق في الكرة الأرضية إلى أماكن لحجر الناس وعزلهم عن الزمن الخارجي الذي يتحرك فيه البشر لصنع الحياة.
[تعود إلى السرير، تتمدد، تنظر إلى السقف، تأخذ نفسًا عميقًا].
هذه العزلة مرآة مشوهة، تعكسني ببطء.. هل سأتعرّف على نفسي عندما تنتهي؟ أوه.. لقد نسيت فيلم حياتي الذي قررت مشاهدته في عقلي، لأرى نفسي في أزمنة قديمة.. ربما بالكاد أعرف حالي قبل مغادرتي إلى السويد لدراسة العلوم الاجتماعية. ربما سيكون فيلماً مملاً، فأنا ضعيفة في رواية الحكايات. كلما رويتُ لأحد حكايةً حدثت لنا أنا وصديقتي المقربة، تستوقفني قائلةً «لعنتِ أم السالفة». وعندما أروي طرفة لا أحد يضحك.

[الإضاءة تتغير، تجلس في وضع تأملي وكأنها تغرق في ذكرياتها، أصوات خافتة لعائلة تتحدث في الخلفية]
في بلادي.. كان الزمن يتحرك بإيقاع معروف، إيقاع متكرر، مرتبطٍ بالمواسم والعائلة. عيد الأضحى، رمضان، الزيارات العائلية، أيام الجمعة. مناسبات الأفراح والعزاء. ربط أجدادنا الزمن بالأحداث المهمة؛ «سنة القحط»، «بعد وفاة فلان بحولين»، «سنة الفيض».. كنت أعتقد أن الزمنَ خانقٌ في بلادنا. أردتُ الهروب منه، الخروج إلى العالم حيث الزمن أكثر سرعة، وله معنى وطعم مختلف.
[تضحك بسخرية، تقلد أصوات أفراد العائلة].
«متى تتزوجين؟ متى تستقرين؟ الزمن يمر يا ابنتي! ...» الزمن يمر! بأي سرعة يمر؟ كان يسير كالسلحفاة في صالة البيت، بين فنجان قهوة وآخر. كانت حياتي مستباحة ليس فقط من أمي وأختيَّ بل من من أفراد عائلتي، خالاتي وعماتي وبناتهن، بل من صديقات العائلة أيضاً. الجميع يعتقد أن من حقهم الاستفسار عن المسار الذي رسمتُه سراً لحياتي وبدى أنه يخالف المألوف. كان غريباً أنني لم أتزوج بينما كل قريناتي أصبح لديهن أزواج وأبناء. الزواج لمعظم الفتيات في بلادنا كان قبل قليل من الوقت محطة نهائية في مسار حياتهن. يبدأ بعدها زمن العائلة الذي لا ينتهي إلا بمغادرة الحياة.. حقاً

لماذا لم أتزوج؟ [تبتســم بهدوء] ألم يكن ذلك أجدى من رحلتي الطويلة في هذه الحياة.. لو تزوجت لانتهى زمني الداخلي وعشت في زمن العائلة، دون دكتوراه أو وجع قلب.

المشهد الرابع: الحياة اللطيفة

[تجلس على كرسي الطاولة وتضع يدها على خدها، تتنهد، تنظر إلى يدها الأخرى، التي تتحرك بحركات إيمائية بطيئة كأنها تقلب ذكريات ملموسة]

كنت أقول لنفسي: «حين أكبر سأعيش زمنًا حقيقيًا، سأتحرر من دوران الزمن التقليدي». يا لي من عبقرية صغيرة! لم أدرك أن الزمن لم يكن بطيئا بذاته، بل كنت أنا مسرعة وأنا أراقبة، كنت أريد أن أسرّعه، أعدّ الثواني، أنتظر أن يحدث شيء.. أي شيء!
[الإضاءة تتغير لتصبح أكثر برودة، وكأنها في بيئة غربية، أصوات ريح تتلاشى تدريجيًا].
سافرت، بمنحة دراسية لإكمال الماجستير والدكتوراة في العلوم الإجتماعية، وصلت ستوكهولم حاملةً بزمن صاخب يعصف بحياتي. نزلت في مطار أرلاندا ليلا. لا أثر لزحام كما في مطارات عواصم العالم. وجوه محايدة تبتسم بلطف كمن تدرب على ذلك مرارا. الشرطية الشقراء الجميلة بعد أن تأكدت من صحة التأشيرة، ختمت جوازي وناولته لي مبتسمة قائلة: «Välkommen till Sverige». اكتشفت حينها بعبقريتي الفائضة عن الحاجة أنها ترحيب والسويد اسمها سڤاريا.

خرجت من بوابة المطار إلى مكان وقوف سيارات الأجرة فوجدت كل شيء أبيض. السيارات منتظمة بحسب الدور. أشار لي شخص يقف على الرصيف إلى السيارة الأولى في المسار، فتح السائق صندوق السيارة الخلفي دون أن يخرج من سيارته لمساعدتي في وضع حقائبي، فوضعتها بنفسي. حين جلست في المقعد الخلفي قال دون أن ينظر إليّ حتى في المرآة: «Välkommen till Sverige». سألني عن وجهتي فأعطيته اسم الفندق فتحرك. لم يتحدث بأي كلمة. انشغلت بتأمل بياض المدينة من النافذة. بحر من البياض أراه لأول مرة. دخلنا المدينة التي كانت شبه خالية، عمارات حجرية صلبة

معظمها بأربعة أو خمسة أدوار، ولا شيء حولي سوى السكون. المدينة نائمة على غير عادة العواصم رغم أننا مازلنا قبل منتصف الليل بقليل.

عشت ثمان سنوات في السويد داخل زمن لطيف، فالسويديون يتحايلون على الواقع باللغة. لديهم قطار قديم وبطيء يسمونه «القطار اللطيف». داخل هذا الزمن اللطيف قضيت وقتي وزمني وحياتي، بين البيت والمكتبة والجامعة والمواصلات والثلوج. السويديون لديهم مفهوم لاغوم [Lagom] والذي يعني بقدر مناسب. ينعكس هذا المفهوم في إدراكهم للزمن، فهو عندهم ليس شيئًا يجب تسريعه أو الهروب منه، بل يُعاش بانسجام مع الإيقاع الطبيعي للحياة، لكن الحياة نفسها عندهم تمضي كالقطار اللطيف. أطلقت على تلك الفترة من حياتي الفترة البيضاء، كانت نقية بشكل إجباري ولم يكن فيها شيء سوى الثلج. لا أصدقاء ولا صخب، زمن ساكن صامت يمضي بين أوراق البحث والمحاضرات.

في البداية حاولت تصحيح الصورة المسبقة عن بلادي عند معظم السويديين الذين يعتقدون أننا ما زلنا نستخدم الجمل للتنقل ونعيش في الخيام. بعضهم يعرفون دبي وآخرون سمعوا بالقاهرة، لكن عالمنا مجرد صحراء في أذهانهم. بعد فترة وجدت ذلك مرهِقا، فصرت أحدثهم عن جملي الذي كنت استخدمه للوصول إلى الجامعة! إذ لا يمكن منطقيا أن يصل المرء إلى الماجستير والدكتوراه دون شهادة جامعية. أصبحت أؤكد لهم أن الجامعة عبارة عن بيت شعر كبير، وفي بعض الأحيان أريهم صورة بيت شعر كبير باعتباره جامعتي التي درست فيها. عشت زمنا طويلا في ذاك الزمن اللطيف، الذي كان أشبه بهذه الغرفة لكن مجال الحركة فيه أوسع منها.

[تقف، تتخذ وضعية أستاذة جامعية، تقلد نفسها وكأنها تشرح بحثها]

أطروحتي في علم الاجتماع كانت عن فكرة الأجيال في الرواية العربية. مشرفي لديه دراسات متصلة بالعالم العربي وزار بعض دوله، فلم يكن عليّ أن أحكي له عن جملي أو عن بيوت الشعر التي نسكن فيها. درست فكرة تعاقب الأجيال في روايات عربية وتغير

نمط حياة الأجيال. كل جيل عاش في زمن مختلف! ونظر إلى الحياة من خلال زمنه [تضحك] لكنني، وسط كل هذا، لم أتأمل زمني وحياتي التي عبرت من خلاله.

أحد مراجع دراستي كانت مقدمة ابن خلدون، التي قال فيها إن الزمن يؤثر في تطور المجتمعات، وأشار إلى أن الأفراد والشعوب تتطور بمرور الزمن. كانت له أفكار حول تأثير الزمن على عادات البشر ونمط حياتهم، من خلال تطور الفكر والعمران. لو عاش ابن خلدون زمن الكورونا وشاهد توقف الزمن في هذا العالم، ماذا كان سيقول؟

[كأنها تخرج عن النص وتحدث نفسها] ابن خلدون الذي رسم خطاً زمنياً لمسار الدول من القوة إلى الضعف حين سأله السلطان المملوكي الظاهر برقوق «تقول إن الدول تمر بمراحل القوة ثم الضعف، فهل ترى دولتنا الآن في بدايتها أم نهايتها؟» أجابه بحذر «يا مولاي، أنا مؤرخ، لا عرّاف!»، إذا كان ابن خلدون لم يستطع التنبؤ بالمستقبل، كيف لإنسانة مثلي أن تعرف ما يخبئه لها الزمن القادم.

[تعود للشرح] استشهدت بالمصادر الفلسفية العربية في التقديم النظري لأطروحتي بشكل متعمد، منذ ثابت بن قرة الحرّاني الذي رأى الزمن أحد القدماء الخمسة التي قال بها الحرّانيون، موجودا منذ الأزل مستقلا عن حياة البشر لكنه مقياسٌ لحركة الكون والكواكب والبشر، مرورا بالفارابي الذي رأى الزمن مرتبطا بالحركة والتغيير، وتدفقه يعتمد على ترتيب الأحداث. [تشير بيدها للجمهور] قد يعرف بعضكم حكاية الفارابي مع الزمن؛ أعني حكايته مع العود الذي عزف عليه فأضحك الناس، ثم عزف وأبكاهم، ثم عزف فجعلهم نياماً وخرج. ألا يعني هذا أنه تحكم بزمن الناس، فالنوم موت مؤقت والموت خروج أبدي من الزمن الظاهري. ليت أحد يعزف لي فأنام حتى ينتهي الحجر.

ابن سينا رأى الزمن مقياسا للتغيرات التي تحدث في المادة، دون اعتباره كيانا مستقلا، بل ظاهرة ترتبط بالقوة الفاعلة التي تحرك الأشياء في الكون. أما الغزالي فقد كان منظاره دينيا، إذ اعتبر الزمن فانيًا ومرتبطاً بإرادة الله، وهو جزء من النظام الكوني

الذي خلقه ويُدار بإرادته، ورأى الحياة الدنيا فترة اختبار قصيرة تتطلب السعي نحو الخير. هل كان زمني سعي نحو الخير. لا أدري، حاولت ذلك.

أما ابن رشد الذي تأثر بالأرسطية، رأى الزمن جزءا من طبيعة الكون ويجب فهمه ضمن مفهوم الحركة فهو يتبع حركة الأجرام السماوية وحركة الكائنات الحية. [تنظر للسماء] تُرى بأي كوكب سماوي يرتبط زمني. ماعلينا، تعقبت آراء الفلاسفة حول مفهوم الزمن حتى نظرية أينشتاين النسبية التي أشار فيها إلى أن الزمن ليس ثابتًا ومطلقًا، بل هو نسبي، وتناول العلاقة بين الزمان والمكان، معترفًا بأن الجاذبية تؤثر على حركة مرور الزمن.

[تقترب من حافة العرض متوجهة إلى الجمهور] اعتذر عن اطالتي وقد يبدو حديثي مملاً، لكني أحاول كسر هذه العزلة، فلا يمكن تدبر جوهر الزمن الذي أعيشه في هذه الغرفة دون المرور على من سبقني، هذا أمر أكاديمي لا يمكن تجنبه حتى في عرض مسرحي. كان بودي أن أشرح لكم الفكرة عبر مفارقات ساخرة أو حكايات، لكني أخبرتكم أني فاشلة في هذا.

المشهد الخامس: الخروج

[تقف أمام الساعة التي تقترب من منتصف النهار، تشيح ببصرها عنها وتنظر إلى أشعة الشمس القادم من النافذة، لتبدأ بالعد على أصابعها بفواصل زمنية مناسبة]

دقيقة.. دقيقتان.. ثلاث.. لماذا تبدو ثقيلة؟ هل عددت الدقائق بشكل متساوٍ في الوقت أم مختلفة في طولها؟ هل الدقائق متساوية! ألا يعتمد طول وقصر الدقيقة على إحساسنا بها. ثلاثين دقيقة وينتهي زمن الكرنتينا اللطيف. إنها أطول ثلاثين دقيقة في حياتي كلها. [تعود وتستلقي على السرير، تنظر إلى السقف متشاغلة عن الساعة] معظم الفلاسفة قالوا إن الزمن هو مقياس الحركة. إذن، هل أنا خارج الزمن الآن لأنني لا أتحرك؟

[تعود لعد الدقائق المتبقية، تعد الدقيقة ثم تغمض عينيها تنتظر قليلا ثم تفتح عينيها وتنظر إلى الساعة لتتأكد من أن زمنها متطابقا مع وقت الساعة التي أمامها].
لستُ دقيقةً في تقدير زمن كل دقيقة! أوه.. حتى الساعات السويسرية تؤخر أو تقدم أحيانا في إدراك الزمن الدقيق. عليّ أن أجمع أغراضي.. أغراضي! ليس لدي شيء سوى نفسي وجوالي ودفتر مذكرات الحجر الذي كتبت فيه يومياً «لا شيء حدث». قدموا لي اليوم بيجاما بيضاء معقمة وأكف وقناع وغطاء للشعر وغطاء للصندل الذي أرتديه.. كلها جديدة [تشير لها]. بقي ثلاث دقائق وعشرين ثانية وأخرج من زمن الحجر، من زمني الداخلي الذي عشته في هذه الغرفة إلى الزمن العام، الزمن الذي سأتحرك فيه مع البشر الذين يعيشون في زمن كورونا.
هل انتهى زمن الحجر؟ أووه.. هذه الدقائق الأخيرة، أطول زمن عشته في حياتي، أربعة عشر يوما وأنا أعدّ الدقائق! وأحسب الأيام التي تتوالى ببطئ قطار السويد اللطيف، لكن الزمن الآن يبدو بين دخولي وخروجي مجرد لحظة.. هل خدعني الزمن؟ أم خدعتُ نفسي؟ سأخرج إلى العالم بعد ثوانٍ معدودة.. الذي سيعود بعد أن تنتهي هذه الجائحة إلى اللهاث.. إلى السباق بأسرع مما كان قبل زمن الكورونا.

[تغمض عينيها دقيقتان، أو أكثر بحسب ما يقرره صانعو العرض، إلى أن يُسمع صوت جرس الباب الخفيف، تقف في المنتصف، تبتسم بسخرية وتهز رأسها.. تُطفأ الأنوار تدريجيًا، يُسمع صوت إغلاق الباب. النهاية].

مسقط 2025

كيف تكتب نصا مؤثرا عن قبلة

المشهد الأول

المكان:

استوديو هادئ، طاولة وكرسي في منتصف الغرفة، مكتبة خلفه، على يمينه مطبخ. على الطاولة فانوس إضـــاءة، كوب فيه أقلام، وكومة من الكتب يظهر أعلاها كتاب "كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس" لديل كارنيجي.

الإضاءة:

بقعة ضــوء على الممثل جالســا بحيث لا تغطي ضــوء الفانوس، ولا تظهر بقية تفاصيل الغرفة قبل أن تتوسع الإضاءة حركة الممثل.

[شـاب في الثلاثين من العمر، ينظر إلى كومة الكتب بتأمل، ثم تبدأ التحدث بصـوت هادئ، ولكن بنبرة تحمل شيئًا من التأثر والجدية.]

الممثل [مخاطبا نفسه]

أريد أن أكتب نصــا. لا أريد أن أعيد ثرثرات الكتاب بصــياغات جديدة. أريد أن أكتب نصــا مؤثرا. ولكن ما الذي يجعل النص مؤثراً حقًا! كيف تســتطيع أن تجعل كلماتك تترك بصمة في القلوب؟ ربما قراءة بعض الإرشادات عن طرق التأثير في الناس قد تكون مهمة [يلتقط الكتاب ويقلب صفحاته]. الأخ كارينجي قدم دليلًا سحريًا لتحويل كل فرد إلى نسخة مرغوبة. الشخص الذي يستطيع إقناع الناس بشراء الهواء. لتحقق النجاح عليك أن تصبح آلة تطبع الابتسامات على وجهك وتتحدث بأقوال مُعدة مسبقًا، هدفها الوحيد إرضاء الجميع، للحصول على وصفة النجاح. [يرمي الكتاب، تقف متحركة على الخشــبة ينظر إلى أرض الخشــبة] الكتاب لا يتحدث عن مشــاعر حقيقة أو بشــر حقيقين.. عن صــداقات حقيقية.. عن كلمات حقيقية.. [يتوقف] لكنه باع ملايين النسخ وترجم إلى كل اللغات.

[يعود للجلوس وتفتح الكتاب] القاعدة الثالثة عشـر: إذ أردت أن يصـغي لك محدثك، تحدث بصدق. نعم.. تحدث بصدق. إنها معضلة جديدة! ماذا يعني أن تكون صادقًا في

حديثك؟ يعني ليس فقط أنك لن تؤثر في أحد بل سـيـنفض الجميع من حولك. ولكن قد يكون الأمر في الكتابة مختلفاً، فأنت لا تتحدث لشخص وجها لوجه، ثم أن الموضوع سـيكون مختلفاً أنت هنا سـتتحدث لشخص وهمي لا يهم إذا زعل أو رضي. [توقف مفاجئ، يرمي الكتاب على الطاولة ويقلب الكتب، يلتقط كتابًا لأمبرتو إيكو تفتحه وتقلبه صامته].

حسـنا، هذا أمبرتو إيكو يقول: "ليكن خطابك متماسـكًا ومختصـرًا" [ينظر في فراغ الصالة باتجاه الجمهور] والله فكرة، التماسك والاختصار من أهم سمات النصوص الجيدة. لماذا علي أن أثرثر في ما لا لزوم له ولا طائل منه على ما تقول كتب التراث [يعود للقراءة] "إن الاختصار لا يعني طول النص أو قصره بل عدم وجود فائض الكلام". واو.. فكرت في البداية أن المقصود كتابة ق ق ج، وهي صنف من الكتابة لا أدري من أتى به، لكن الله يوفقه على أية حال، لأنه أعطى قليلي الدراية والوجدان ذريعة أدبية للكسـل، فصار الواحد يكتب تهيدة وينشرها بعنوان ق ق ج، ويجادلون بأنها نصوصا حداثية تكسر الأجناس الأدبية. [يضحك بخفة، ثم يحدق لحظة في السقف كمن تذكر شيئًا] آه هناك مقولة لهيرودوت، أبو التواريخ، لا أدري أين قرأتها يقول: "يا أوفيد، أوصـيك بالدقة لا بالوضـوح". نعم، الدقة لا الوضـوح.. فليس المطلوب أن يفهمك الجميع، بل أن تصيب هدفك كالصياد.

لماذا لا أعتمد على ألف ليلة وليلة [يتناول مجلده الأول] فهو قد يفيدني في كتابة النص المؤثر. يمكن أن أستوحي منها أسلوبًا سرديًا يجعل القارئ يتابع القراءة بشغف، فهذه الحكايات ما زالت معينًا لا ينضـب للكُتاب. ألم تقل شـهرزاد؛ وهي تجترح حلاً لمعضـلة الموت، "عليّ ألا أدعه يشـرد كي لا يفكر بقتلي". وقد كانت تعني [القارئ] الوحيد يومها شـهريار، فالشرود في هذه الحالة ثمنه الحياة وليس إغلاق الكتاب كما يفعل أي قارئ. [ينظر إلى المجلد الضخم ثم يرفعه قليلاً بيده ساخرًا] المشكلة أن قارئ اليوم يشرد من

الصفحة الأولى، ومن يقرأ مجلدات صار يُصنف تلقائيًا كمخلوق غريب، مدمن كتب، لا يخرج من بيته ولا يختلط مع أحد. إنه كائن انقراضي من عصر ما قبل التطبيقات! هل أفكر بطرق لتسويق النص المؤثر! ربما مهما كتبت سيطمر تحت ركام المنشورات. نحن في عصر آخر غير عصر ألف ليلة وليلة يوم لم يكن هناك من شيء للتسلية والترفيه سوى الحكايات. [يقف يدور في خشبة المسرح والطاولة صامتا] فكرة تسويق النص معقولة.. لكن ماهو النص القابل للتسويق. [يعود إلى الطاولة يقلب الكتب يلتقط كتاب "التسويق بالمحتوى: كيف تروي قصتك وتقنع جمهورك" يبدأ القراءة] إن عنوان المحتوى مهم جدًا يجب أن يغري القارئ، الذي هو المستهلك النهائي، بقراءة المحتوى أولًا. والله فعلا ماهو القارئ غير مستهلك. إنها فكرة جيدة أن نتخيل القارئ مجرد مستهلك والنص مجرد سلعة.

إذا على النص أن يحقق معايير الجودة أولا ثم يبدأ عمل قسم التسويق. العنوان إذاً هو الذي سيقود القارئ إلى النص ويفتح شهيته على القراءة أو يغلقها. لأفكر بعناوين جذابة، ماذا لو عنونت نصي بـ "قتلتها أخيرًا". العنوان جذاب، لكن ماهو محتوى النص؟ عم سيتحدث؟ لا بد من مضمون، فالعنوان وحده لن يكفي، ومن هي التي قتلتها أخيرًا؟ فحسب الأخ كارنيجي عليك أن تكون صادقًا، وأنت لم تقتل حتى دجاجة لتتحدث عن قتلها مستخدمًا بعض الحيل اللغوية موهمًا القارئ أنها ربما تكون امرأة! [يتوقف الكلام والحركة، لحظة تفكير ثم يقرر].

لا، لا علي أن أستبعد هذا العنوان، عليّ أن اختار عنوانًا صاخبًا مثل "الرجل الذي أكل كلبًا حيًا". العنوان مغرٍ، وسيدفع فضول الكثير من القراء كي يعرفوا كيف أكل الرجل الكلب. لا لا.. لقد استخدام كثيرون قبلي هذه الصيغة المعكوسة، وعليّ أن أخلق نصًا جديدًا أو أصمت، فلا مبرر لإعادة ثرثرات الآخرين. لم لا يكون العنوان "آخر موت لبائعة المكسرات"! في عنوان مخاتل كهذا، تنسف فكرة أن الموت يأتي مرة واحدة

دائمًا.. لكن من سيهتم بموت بائعة المكسرات سواء كان موتًا أولًا أو موتًا أخيرًا؟ [يتنهد، يضع الكتاب على الطاولة ثم يتحرك].

لم لا أفكر بمضمون نصي أولاً، ثم أختار العنوان.. [يتوقف قليلاً] لكنني لست مدفوعًا إلى الكتابة تحت وطأة فكرة محددة. أريد أن أكتب نصًا مؤثرًا، دون أن أقرر مضمونه بعد. في هذه الحالة، من الأفضل أن يقودني العنوان. لكن.. قد يكون مفيدًا أن أتخيل المحتوى العام أولاً. [يتنهد قليلًا، ينظر إلى الأمام بصمت، ويتحرك ببطء].

يبدو أن كتابة نص ليست أمراً يسيرا كما يتخيل الكتاب، فما بالك إذا أردناه أن يكون مؤثرا. [يتوقف] لماذا لا أكتب عن المعاناة الداخلية لشخص وحيد وأعزل! ماذا يعني أعزل. كل الناس العاديين أعزلاء.. [يضحك متوجها للجمهور] ما هو جمع أعزل! أنت تتحدث كمثقف يحشو كلاما بلا طائل هكذا لن يكون نصك إلا ثرثرة. ثم أن الكتابة عن معاناتك الداخلية قد لا تهم أحداً، أنت متأثر بالكتب الغربية، في الشرق لا يوجد معاناة داخلية هناك معاناة في العمل في تحصيل لقمة العيش في تدبير شؤون العائلة. معاناة مع الدوائر الحكومية مع سائقي التكاسي مع وسائل النقل العامة.. معاناة داخلية قال.. إذا كتبت عن معاناتك الداخلية لن يكون النص مختصرًا ولا دقيقًا. ماذا ستكتب غير الأستطراد في تهويمات شعرية غامضة تجعل القارئ يتوقف عن القراءة قبل منتصف النص. قبل منتصف النص.. والله هذا يمكن أن يكون عنوان جيد. أين الجيد فيه! عنوان غامض هرائي فما الفرق بين قبل منتصف النص وبعد منتصف النص ومنتصف النص! أعني بالنسبة للقارئ. [يعود للجلوس إلى الطاولة، يتصفح الكتب يلتقط كتابا رولان بارت "إمبراطورية العلامات" يتصفحه].

أها، الأخ رولان بارت يقول: "الوضوح متعدد الدلالات علامة فارقة لأي نص يتوخى إحداث التأثير". [يصمت قليلا كأنه يتدبر الجملة ثم يكمل] "النص مثل الحب، متعدد الدلالات، يجب أن يفتح أمامنا أبواب التأويل والتفسير مع كل قراءة جديدة". [يرمي الكتاب على الطاولة ويقف بطريقة احتفالية متوجها للجمهور].

الحب.. وجدتها نعم سـأكتب عن الحب. هذا موضـوع شـيق وجذاب. يجذب الصـغار والكبار، النسـاء والرجال. وهو ليس مرتبطًا بزمان معين. علي فقط إيجاد حدث لهذا الموضـوع. أهاا! أفكر بحدث [يتوقف] إذن، النص الذي أريد كتابته هو قصـة! لكني لا أحب كتابة القصـص. ليكن. لم لا أجرب؟ الناس تحب القصـص، خصـوصًـا إذا كانت عن الحب [يلتقط نفسًا عميقًا، يتحرك ويستمر بصوت خافت].

الحب سيعطي نصي ميزة إضافية؛ إنه موضوع خالد.. ربما، تُخلّد قصتي. أن أريد كتابة نص مؤثر، والحب سـيكون ثيمة محببة للقارئ. سـيتبادل العشـاق هذا النص، يقتبسـونه أو يشـيرون إليه كلما أحبوا، يشـاركونه على وسـائل التواصل إذا أراد إقناع الآخر بأنهم عشـاق مرهفو الأحاسـيس. [يتنهد كمن يتذكر شـيئا، يتابع المشـي الهادئ] نعم، الحب.. لكنه موضـوع متشـعب. من أين أبدأ.. هل أكتب عن حبيبتي! ألم أحب! لكن ماذا سـأكتب عنها؟ [يبتسـم بحزن، ينظر إلى الأرض لفترة قصـيرة]. عليّ ألا أنسـى أنني وصـلت إلى هنا أسـاسًـا لكتابة نص مؤثر وليس للتفكير في حياتي وتقلباتها. [يعود للنظر إلى الجمهور ببطء] نعم سـأكتب عنها.. لكنني بحاجة إلى خيط البداية. لم لا أكتب عن قبلتي الأولى؟ تلك اللحظة الفارقة، التي مر بها كل من أحب [يتوقف للحظة، يلتقط نفسًا عميقًا، ثم يتابع ببطء].

القبلة الأولى. نعم نعم القبلة الأولى موضـوع شـيق وفكرة عبقرية. إنها لحظة فارقة مر بها كل من أحب، هكذا سـيسـتعيد قبلته هو عندما يقرأ نصـك، وسـيحب هذا النص لأنك ذكرته بها وسيغرق مثلك الآن في قبلته، ويتجاهل بعض عثرات النص. القبلة الأولى يحلم بها كل من يحب ولم يذقها، بالتأكيد سيكون شغوفاً وهو يتابع كيف كانت القبلة الأولى لشخص عاش الحب وذاق طعمها. أما من لم يحب فسيتألم لأن هذه اللحظة لم تأت بعد، وسـتقوده إلى الأمل إذا نجح نصـك أن يكون مؤثراً. بكل الأحوال سـتكون قد دخلت منطقة شـعورية مؤثرة. إذن: لكي تخلق تـأثيرا طـاغياً وأنت تكتب عليك أن تستعيد التفاصيل الحميمية لتلك القبلة.

المشهد الثاني

المكان:

خشبة عارية، كرسي واحد في الزاوية. إضاءة خافتة. في المنتصف مساحة فارغة تسلط عليها بقعة ضوء.

الإضاءة:

بقعة ضوء على الممثل حين يبدأ، ثم تتوسع تدريجياً حسب الحركة.

[الممثل يقف في منتصف المسرح، يتنقل بخطوات مترددة، يتحرك ببطء في المكان، يتأمل في الفراغ كأنه يسترجع ذكريات الماضي، ثم يبدأ بالحديث بحذروبصوت منخفض].

أتذكر أنني كتبت تاريخها على حائط غرفتي، حتى أنني لكثرة ما كنت أقف أمام هذا التاريخ حفظته. ولتمويه الأمر يومها على صديقي الفضولي الذي يشاركني السكن، كتبت "14-12-1990 بدء الحياة". تركت تلك الغرفة فيما بعد، وظل هذا التاريخ عالقاً في ذهني. ربما، لا، ليس ربما بل بكل تأكيد، سيكون صاحب الغرفة قد أعاد طلاء الجدران وطمس ذلك التاريخ. الآن، وأنا أستعيد تلك القبلة، تبدو لي وكأنها حدثت قبل قليل فقط، فهي ما زالت حارة، طعمها ما زال عالقاً.. لكن كيف سأخلق هذا الإيحاء للقارئ ليجعله يحسّ أنها كانت كذلك.

[يتحرك قليلاً نحو الجهة اليسرى، وكأن المكان يثير فيه شعوراً بالضياع.]

لأبدأ نصي بـ [حينما احتضنتها لأول مرة أحسست بجسدي يرتعش، وعندما شعرت بحلمتيها تلامسان صدري بدأ تنفسي يتسارع ويقترب من اللهاث..] حسنا، ولكن كيف سأتقدم باتجاه القبلة فهي التفصيل الأساسي من علاقتي بحبيبتي الذي اخترت أن أكتبه. هل عليّ أن أذكر المكان مثلاً؟ هل سيضيف ذكر المكان شيئاً إلى النص، أم أنه سيكون ثرثرة فائضة؟ وهناك أمر آخر.. النص لكي يكون مؤثرا يجب أن يكون الكاتب

صادقاً، أو على الأقل رسم مشهدا مقنعا بصدقه للقارئ.. وعليه كيف لي أن أذكر أنني قبلتها في الشارع، في مساءٍ هدّه التعب، بعد مسير طويل في شوارع حول المدينة!

[يتقدم خطوة للأمام، يبدو وكأنّه يتذكر اللحظة نفسها بوضوح.]
فكرة ذكر الشارع تبدو لي مهمة، فقبلة أولى في شارع ستثير الانتباه، إذ سيفكر القارئ كيف تجرأ هذا المخبول وقبلها في الشارع وكيف استسلمت له! ستكون الجملة هكذا إذا: [بعد أن جاءت على الموعد الذي حدّدته لي خلال اتصالي الهاتفي، سرنا، منطلقين من حديقة الجامعة إلى المحلق الغربي للمدينة، حيث لا يمر هناك أحد..]! تبدو جملتي هذه تقريرية غير مشوقة فهي تفتقر إلى عنصر التشويق في تقديم الحدث، جاءت على الموعد! حتى لو كان هذا ما حدث فهذه الجملة ستبدد لهفة الانتظار هكذا.

[يخطو خطوة جانبية ويتنهد عميقاً.]
تلك اللحظات سيكون وصفها مهماً وتمكنني من سرد بعض الهواجس التي انتابتني وأنا أتساءل لماذا تأخرت؟! كأن أذكر كيف ركضتُ باتجاه تجمع بعض الناس حول سيارة دهست شخصاً. إنها هي. كما تخيلتُ لحظات.. ستجعل الانتظار مشوقاً وستوتر القارئ معي.. وهذا أمر مهم لنص مؤثر. كما أنني وقد حدّدت المكان بدقة يجب أن أذكر المدينة. إذاً.. عليّ ربط هذه التفاصيل أو أتخلى عنها.
[يتوقف عند مركز المسرح، ينظر للجمهور وكأنه يستنطقهم]
كيف سأمرر ذكر المدينة دون أن أقحمه في سردي؟ يمكن أن أقول: [إنها سنتي الأولى في جامعة حلب، وقد كنت شاباً ريفياً منطوياً لم تربطني علاقات مع الفتيات ولا أدري عن عالمهن شيئاً، وكنت أكتفي بممارسة العادة..] لا..لا، إضافة إلى أن هذه الجملة سمجة، سيكتشف القارئ الذي يتابعني أنني أكذب، أو أنني أبني قصة متخيلة فقد ذكرت مرة في لقاء صحفي أنني بدأت الكتابة لأنني أحببت زميلتي في المدرسة.

[يبدأ في التحرك حول المسرح، وكأنه يفكر في الفكرة نفسها]

لكن ما الذي سـيدري ذلك القارئ أنني لم أقبل زميلتي تلك وإنه كان حباً مكتوماً من الطرفين وأن ما كتبته لم يصل إليها؟ قبلة في شارع، في مدينة محافظة سيكون أمراً غير متوقع، لكن يجب عليّ أن أشـير أيضـاً إلى أن حبيبتي فتاة محافظة كي أخلق التأثير المطلوب، إذ إن قبلة لفتاة مستهترة سيكون أمراً عادياً. عليّ أن أمرر جملة، مثل: "كانت تتهجى خطوتها الأولى في عالم الحب" وأدمجها في بداية مقنعة أكثر.

[يتوقف، يدير ظهره للجمهور وكأنه يود أن يكشف لهم شيئًا خفيًا]
لم لا أبدأ هكذا: [بعد حبٍ من طرف واحد استمر عدة سـنين لم أجرؤ أن أبوح به لزميلتي التي أحببتها، فقد كنت أتلعثم بحضـور أي فتاة وأرتبك، كنت أتحايل على هذا بالصمت إلى أن تعرفت على..]. هل سأذكر اسمها! هل هذا مهماً! عندما سأقول تعرفت إلى [هدى] سيعلم من يعرفني أنني أتحدث عن زوجتي، وسيعرفون حينها تفصيلاً مهماً عن حياتي، وقد اعتاد الكتاب أن يموهوا هذا حتى وهم ينهلون من تجاربهم الذاتية، على الأقل سأغير الأسماء والأماكن.. [يلتفت نحو الجمهور وينظر إلى خشبة المسرح] ما الذي أريده! كنت أبحث عن نص مؤثر. ماذا سيعني إن كان اسمها هدى أم سارة! [يسير واضعا إحدى يديه في جيبه يتحرك].
لا.. الاسـم مهم للتدفق العاطفي أثناء الكتابة، سـيجعلك الاسـم الحقيقي حاداً وحاراً وأنت تكتب.. وهذا سـيخلق تأثيراً عاطفياً؟ يبدو أنك تريد ممن يقرأ أن يتعاطف معك ولستَ عابئاً بغير هذا.. أرى أنك بدأت تغرق في تفاصيل غير مهمة. عد إلى القبلة.

[يتراجع خطوتين، كأن شيئًا ثقيلًا يسحبه للوراء]
[في شـارعٍ منزوٍ ومظلم، في مسـاءٍ هدّه التعب، بعد مسـيرٍ طويل اسـتمر من منتصـف النهار حتى بداية العتمة. قالت بهدوء: لقد تأخرت وعلي أن أذهب. اسـتبدت بي الخيبة واشـتعل بي الشـوق حتى قبل أن تذهب فوقفت. يدها كانت في يدي، وقوفي المفاجئ أجبرها أن تقف، التفتت إليّ فجذبتها نحوي، ودون أن أترك لها فرصة للتفكير حضنتها، كانت المرة الأولى التي أحضنها فيها؛ جسدي بدأ يرتعش عندما شعرت بحلمتيها تلامسان

صـــدري. تنفســـي بدأ يتســـارع ويقترب من اللهاث. نظرت إلى عينيها، نظرت هي كذلك، أدركتْ نواياي، فأشـــاحت بوجهها عني، وضـــعت يدي خلف رأســـها وجذبته نحوي بممانعة خفيفة منها و... أطبقت بشفتي على شفتيها المطبقتين..]

[يتوقف في المنتصف، يضع يده على صدره، ينظر إلى جهة وهمية كأنه يراها]
الأمر ليس ســـهلاً كما تتوقع، فما كتبته هو قبلة عامة لا خصـــوصـــية لها، يمكن أن تجدها عند أغلب الكتاب، إضـــافة إلى بعض الجمل الفائضـــة والمكررة، فذكر المســـاء يغني عن ذكر بداية العتمة وأنت كنت تفكر بالاختصار والتأثير..

[يمشي ببطء إلى حافة المسرح، يركع كما لو أنه يبحث عن شيء على الأرض]
لكن هذا ما حدث. فهي القبلة التي أســـفرت عن طفلين وعمرٍ من الخيبة والألم. لنعد إلى النص، ليس وقت دواخلك الآن، عليك أن تكتب عن قبلتك أنت. لا يهم الوصـــف الخارجي لها، فهو ما يمكن اختزاله إلى جملة واحدة. اكتب: [لا زالت تلك القبلة ممتزجة بريقي، تحت لساني.. لم تغادرني تلك القبلة رغم أنها أسفرت عن خيبة وطفلين. ما زلت أذكر إن جســـدي كان يرتعش كمن بلله المطر وتســـرب من خلال ثيابي إلى جســـدي في شتاء قارس، حينما أتذكرها أتذوق طعمتها فقد كانت كطعم الكستناء..]
أوه.. هذا جيد وخاص، لكن تأثيره العاطفي سيعتمد على ما سيليه لأنه لم يشكل سوى حدث قصير. يمكنك أن تربط القبلة الأولى بالقبلة الأخيرة لها.. لكن كيف لك أن تذكر القبلة الأخيرة دون أن تفجر ســـراً كنت تخبئه عمن يعرفك ولا يعرفها؟ الســـر الذي ما زلت تداريه حتى عن أطفالك.

[يخفت صوته، يلتفت للجمهور، صامتًا للحظة]
في تلك الفترة تذرعت للجميع بأن من تحبك غادرتك، ولم تضف شيئاً! قلتَ هذا لحامد حين ســـألك: «ما بك؟»، وأصـــبح لازمة تكررها للجميع. وقلت هذا لدلع حينما قالت لك: «أنت لســـتَ طبيعي»، فتركتْ الماســـنجر واتصـــلت بك. فكرتَ يومها أن الصـــوت سيفضحك، فكررت لها لازمتك التي حفظتها جيدا، وأنك تحتاج وقتاً كي تخرج من هذه

الحالة. الآن بعد مرور ما يقارب السنة ليس مهماً أن يعرف الجميع.. التفاصيل الحقيقية ستكون لاذعة وستنفجر من مناطقك الشعورية الأكثر حميمية، فهمّك الأساسي ألا يعرف أطفالك أنها رحلت، لقد فكرت يومها وما زلت تعتقد أن [نينوى] ستذبل، وأنت تدرك مدى تعلقها بأمها. مازلت هلعاً من فكرة فقدان آخرين، وخصوصاً «ننو» كما تدلعها.. لم تذهب إلى العزاء يومها، وكان هذا قرارك النهائي الذي لم يفهمه أو يقدره أحد.

[يعود ليجلس على الكرسي ويسند رأسه إليه فيصبح نظره للسقف]
ظللت بجانبها إلى أن... ثم قبل أن أخرج من المشفى، قلت للحضور الذين لم يتكاثروا سأذهب إلى الأولاد، فهم وحدهم في المنزل ونبهت الجميع ألا يخبرهم أحد. حينما فتحت الباب لم يتراكضوا كعادتهم عندما تكون أمهم في المنزل، مرض أمهم وغيابها عنهم كسرهم وخذل أصواتهم وخطاهم، افتعلت الضجيج يومها وقلت لهم: «لنعقد اجتماعاً عائلياً»، وهي الفكرة التي كانت تبهجهم. أظل أؤجل الاجتماع أياماً عديدة، أطلب منهم أحيانا أن يكتبوا مطالبهم وشكاويهم للنظر فيها، في آخر اجتماع قرّعتني «ننو» لأني لم أعد أحبها، وقال لي «غالي»: «لم تعد تلعب معنا..» وأضاف وكأنه يتذكر: «من زماااان لم تلعب معنا». حين قالت لي نينوى إنها «ستبطل تحبني» ظللت صامتاً لكن لون سحنتي بدأ يميل للشحوب. قالت لها أمها: خلص ننووو.. يكفي "ترندحي"، وقد أحست من ملامحي أن أوجاعا كثيرة بدأت تستيقظ في داخلي، يومها ردت نينوى: «ما بدي اسكت خليه يسمع...» حينها نزلت دمعتي.. بهت الجميع. غالي نظر إلى نينوى كمذنبة، وقد تنقلت نظراتها بشكلٍ خاطف بيني وبين أمها.. ركضت إلي وحضنتني، ملصقة خدها فوق دمعتي قبل أن تتدحرج: «باباتيو عم امزح.. بحبك والله.. لا تزعل». قلت لها مبتسماً: «ماني زعلان والله». ضحكتْ.. قرصتني من خدي بيديها الطرية قائلة: «ما تتحملي مزح ياقطة» أخذتها بحضني صائحا بصوت مخنوق: دخيل القطاط أنا.

[يقف الممثل بتثاقل شــديد، يمشــي بخطى بطيئة يحدق في الأرض وكأنه يلمح ظلاً من الماضي، ثم يتابع الحديث]

لقد فلت مني النص كما يبدو، ولن يكون ما أكتبه ســوى ثرثرة شــخصــية لن تشــكل قصــة، فقد نســيت أنني أريد أن أكتب نصــاً مؤثراً عبر قبلة، وانســربت إلى دواخلي في تداعيات هامشية. هل أريد أن أسرد كل حياتي الشخصية من خلال نص عن قبلة؟ لا.. لا، عليّ أن أدخل الأطفال إلى هذا النص كشخوص مهمين، إذ إن الوضع الذي آلت إليه الأمور بعد رحيل أمهم ســيكون تفصــيلاً رئيســياً. أكتب بعد ما كتبتُ عن القبلة الأولى: [تلك القبلة التي أثمرت عشر سنوات من الزواج وطفلاً في السنة الأولى لزواجنا لحقت به طفلة بعد أقل من ســنتين وأنجبت انفصــالاً هادئاً...] ليس في ما كتبت هنا أي عبارة مؤثرة لكنني أحتاجه لربط الأحداث وإدخال عنصر الزمن، وسيكون مهماً أن أذكر هذا قبل أن أذكر قبلتي الأخيرة لها.

[يحرك يده ببطء في الهواء مستغربا] شكلي أنا من بدأ يتفكك، وليس النص وحده. ولم أعد أعي أين النص، وأين تداعياتي التي خارجه، إلا أنه يجب أن أشير إلى وضع أطفالنا بعد رحيلها.

[يضم ذراعيه إلى صدره كأنه يحتمي من شيء، ثم يبدأ الكلام ببطء]

قلتُ لصــديقتها هيفاء حين اتصــلت بي معزية: أريدك أن تمري. فقد هداني تفكيري أنها الحل الملائم لما نحن فيه.. ويمكنني أن أدخل هيفاء إلى النص لإضافة شخوص يجعلون الأحداث أكثر حركة وتشــويقا. إذن يمكن أن أكتب: [قبل رحيلها بيوم كنتُ أمســك بيدها وأمازحها: سنتبهدل إذا متِّ، لا تموتي، ليس من أجلك فقط بل من أجلنا جميعاً..

[يرفع يده اليمنى قليلاً، كما لو أنه يستعيد ملمس يدها]

ضحكت قائلة: "موت المرأة عند الرجل متل طرقة الكسع"، فما بالك وأنا لستُ امرأتك. كانت تذكر هذا للمرة الأولى أمام هيفاء التي لم تســتوعب جملة "لســتُ امرأتك". لكنها أكملتْ بعد أن أدراتْ وجهها إلى هيفاء: بالنسبة للأولاد هيفاء تسكن معهم، أنتَ طافش بالأصل، ولن يتغير عليك شيء.

[يضع يده على خده الأيسر، كما لو أنه يمسح دمعة وهمية]
سالت دمعتها.. مسحتُها بيدي قائلاً: بعيد الشر عنك.. إن شاء الله عدوينك، وأضفتُ ضاحكاً: لا تخافي، والله لتهري عظامي وأنت لا زلتِ تشمين هواء الدنيا.. أنتِ بسبع أرواح. فردت ضاحكة: إن شاء الله. لم يستفزني هذا داخلياً، إلا أنني افتعلتُ التأثر: "أيوة.. أيوة اظهر وبان... بدك تخلصي مني مو؟"
[يبتسم ابتسامة صغيرة وهو يهز رأسه]
ألا ترى أنك أبتعد عن النص؟ خلطت ما بين النص الذي تنوي كتابته وبين هذه الذكريات؟ كان الاقتراح أن أربط القبلة الأولى بالقبلة الأخيرة. هل من الضروري أن يعلم الجميع أننا كنا منفصلين حينما قبلتها القبلة الأخيرة؟ حتى لو أردتُ إعلان هذا يمكنني أن أمرره عبر جملة قصيرة: [لم أعد أذكر من قبلاتي لها إلا ثلاث.. كانت القبلة الثانية بعد أن قررنا الانفصال، فحياتنا أضحت خالية من القُبَل...] جملتي الأخيرة موفقة جداً، فـ"خالية من القبل" كافية ليعرف القارئ ما اعتَرَى حياتنا الزوجية دون ثرثرة فائضة.
ولمزيد من التأثير عليّ أن أصف القبلة الثانية هذه: [تناولتُ حقيبتي التي أدمنتني وأدمنتُها، قبلتُ ننو وغيلو وهما يدركان تماماً ما حصل، لكنهما دائماً يتظاهران بعكس ذلك.. خرجتُ منسلاً كلص، قالت لي: "مافي خاطرك". التفتُ إليها، لم يكن هناك دموع، فقد بدونا قويين بما يكفي لتحمل هذا. اقتربت مني.. تركتُ يد الحقيبة، الطفلان كانا يقفان خلفها.. قبلتُها على خدها هذه المرة مطيلاً احتضان رأسها، كان لشعرها رائحة بساتين في أول الربيع، وكان لجيدها رائحة ياسمين يذبل، ولم يكن هناك طعم للقبلة لأن شفاهنا ظلت مطبقة.. ربتُ على رأسها: "خاطرك".]

[يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، كأنما يقترب من طيف]
لم يبقَ لي شيء كي أصل إلى القبلة الأخيرة، عليّ أن أقول جملة واحدة قبلها فقط أذكر فيها للقارئ أن حياتنا بعد أن انفصلنا صارت ودودة وعاد الهدوء إليها كأن أكتب: [كنتُ

أفكر دائماً: لمَ ينتج الغياب كل هذا الهدوء؟ لمَ بعد أن سرنا في دروب منفصلة لم يعد لحضـــور كل منا في حياة الآخر طعم الأذى؟] نعم، هذا حقيقي، فقد أصـــبحنا نتبادل أحاديث مطولة، وكلما اقترينا من مناطق وعرة نقرر إغلاق الموضـــوع.. كنتُ أماحكها بأنني في علاقة حب الآن، وأنني ســـأتزوج قريباً، كان هذا كافياً لجعلها تتوتر، إلا إنها تضحك وهي تقول: "إن شـاء الله من الصـبح.. إذا بدك أخطب لك والله.. يا شـايل الهم عن قلب صاحبه". [الممثل يفتح كفيه بتوتر كأنه يشـرح شـيئًا لا يُفهم] أفتعلُ الانزعاج مردداً: "إي.. إي صرتُ هم طبعاً.." تحاول مراضاتي: "لا والله عـ سلامتك، ما في منك"

[يجلس على أرض خشبة المسرح في مواجهة الجمهور]

لم لا أكتب هذا داخل النص. يمكن تشذيبه وإدخاله في النص.. لا..لا، إنها جمل فائضة يمكن اختزالها بجملة وحيدة موحية ومؤثرة وأنا أكتب قبلتي الأخيرة: [في المشـــفى حين قال لي الطبيب «البقية بحياتك» لم أرد، كان نظري قابتا متجها إلى وجهها الأسمر الذي احتفظ بنضارته رغم المرض.. كنت أعرف أنها فارقت الحياة، لكني تعلقت بوهم عساه ينطقه. حينما ذهب شـقيقي الأصـغر لإحضـاره كنت ممسـكاً بيدها التي بدأت تتسـلل إليها البرودة. قلت لهم اتركونا لوحدنا. نظر إلي أخي بحزن وممانعة. اقترب مني.. امســك يدي محاولاً أن يسحبني إلي.. كررت بحزم دون أن أتحرك: اتركنا لوحدنا.. لاطفت وجهها قليلا، ثم داعب شعرها الأسود الكثيف، كان ثغرها ينفرج عن ابتسامة هادئة، حضنتها فسـرت في جسـدي قشـعريرة رطبة، اقتربت بوجهي من وجهها وطبعت قبلة على خدها الذابل، من جيدها كانت تفوح رائحة بساتين تذبل، وكان لقبلتها طعم الكستناء نفسه.. وانفجرت ببكاءٍ شرسٍ وحاد وهي في حضني...]

يتمدد الممثل على خشبة المسرح وتخفت الأضواء على صوت بكائه

الرياض 2006

خلف علي الخلف

كاتب من الجزيرة الفراتية

شاعر وكاتب وباحث من الجزيرة «الفراتية»، مواليد الرقة قرية «خنيز محمد الخلف» 1969 يحمل الجنسية السويدية.

حاصل على ماجستير في فلسفة الصحافة من جامعة سودرتورن في ستوكهولم [السويد] عن رسالته المعنونة «احتمالات البلوكشين والاقتصادات المشفرة في تنمية الصحافة المستقلة والبناءة». كذلك يحمل شهادة في العلاقات الدولية من جامعة مالمو [السويد). شهادة في العلوم الإنسانية الرقمية من جامعة كالمر (السويد). إجازة في إعداد المحتوى من كلية مالمو للمهن التطبيقية (السويد). إجازة في الاقتصاد من جامعة حلب.

عمل في جريدة إيلاف الإلكترونية في الفترة من 2006 إلى 2013 كباحث ومحلل بيانات ومطور، ويكتب فيها مقالات رأي منذ العام 2003 حتى الآن.

أسس في عام 2005 موقع جدار الثقافي الذي تحول لجريدة إلكترونية لاحقاً، وتوقفت عام .2013

كتب العديد من الأبحاث باللغة العربية والإنكليزية، ونشر منذ تسعينات القرن الفائت في الصحافة والدوريات العربية.

فاز بجائزة الفجيرة الدولية لنصوص المونودراما في دورتها الأولى عن عمله «كلكامش بحذاء رياضي».

ترجمت بعض أعماله ومقالاته إلى عديد من اللغات؛ الإنكليزية والألمانية والسويدية والإسبانية والفرنسية ولغات اخرى.

يجيد العربية والإنكليزية إضافة إلى تعلمه اليونانية والسويدية والإسبانية.

إصدارات

نون الرعاة (2004) شعر.

التنزيل (2007) شعر.

كحل الرغبة (2008) شعر.

نواح الغريب: حكاية لم ينقرها الطير (2008) نص.

قصائد بفردة حذاء واحدة (2009) شعر.

يوميات الحرب القائمة (2015) شعر.

يوميات الحرب القائمة (2016) شعر. ترجمة إنكليزية.

يوميات الحرب القائمة (2018) شعر. ترجمة ألمانية.

العبرة في الحواس (2018) شعر.

لنكتب عن السويد (2024) شعر.

يُقال أعمى: الديوان الأندلسي تليه قصائد إيلينا (2024) شعر

گلگامش بحذاء رياضي (2010) مسرحية مونودراما.

حقيقتان وممثلة واحدة (2012) مسرحية مونودراما.

I Am from Islamic State (2018) مسرحية مونودراما.

الحرّاني (2025) رواية

عن البلاد التي بلا أمل (2011) مقالات سياسية.

أصوات بالأبيض والأسود (2012) حوارات.

نجلا بح والقرضاوي وجهان لعملة واحدة (2013) مقالات.

الدولة المرفوضة: سوريا ودور اليسار في إنتاج الدولة الطائفية (2023) دراسة سياسية.

الحرّانيون السّومريون: في أصول ومعتقدات العشائر الزراعية في الجزيرة والفرات (2022) بحث أنثروبولوجيا مشترك مع قصي مسلط الهويدي.

MONODRAMA

يضم هذا الكتاب خمس نصوص مونودراما كتبها خلف علي الخلف، الحائز على الجائزة الدولية لنصوص المونودراما التي تُنظّم في الفجيرة كل عامين. تُقدِّم هذه النصوص لحظةً حرجة في حياة شخوصها المتنوعين، حيث يقف الممثل وحيدًا دومًا في مواجهة زمنه، مستعيدًا ذكرياته عن حياته التي يكشفها أمام الجمهور، على مسرحٍ بسيط، مجسّدًا شخصية كانت يومًا مجرد كلمات على الورق، ليمنحها الحياة.

هذا الكتاب ليس مجموعة نصوص مسرحية تقليدية، بل هو محاولة درامية للكشف عن هشاشة الذات في مواجهة السلطة، الزمن، الحب، الفقد، والذاكرة. يكتب الخلف هنا بوعي المسرحي وحرية الشاعر، ليمنح شخصياته، من گلگامش المعاصر إلى الممثلة الباحثة عن «حقيقتها»، القدرة على مساءلة العالم واللغة والمسرح ذاته.

في هذه النصوص، الزمن ليس مجرد خلفية، بل شخصية ثالثة تلاحق البطل، تسخر منه، أو تبتلعه في تكرار عبثي. أما الخشبة، فهي المساحة الأخيرة الممكنة للكلام، للانهيار، للغضب، وللسخرية حتى من فكرة العرض ذاته.

نصوص تُقدِم لحظة عزلة معاصرة، حيث يُترك الإنسان مع أسئلته وهواتفه وذكرياته المهشّمة. تتأرجح النصوص بين الهزل والتراجيديا، بين الحنين والتهكم، في لحظة اعتراف عالية على خشبة مسرح بسيطة. في زمنٍ تضاءلت فيه العروض وغاب الجمهور، يتقدّم هذا الكتاب كأداء داخلي، يُقرأ كما لو كان يُعرض، ويُعرض كما لو كان يُرتجل من قلب ممثل أنهكه الدور، لكن لا خيار أمامه سوى أن يواصل اللعب.

هنا، الممثل وحيد. الصوت صدى. والخشبة صمت. لكن العرض لا ينتهي.

KHALAF ALI ALKHALAF

A LONE ACTOR ON AN ABANDONED STAGE

9 781326 239015

Jidar
Culture & Publishing